

الفردوسى

الشاهنامه

ملحمة الفرسان الكبرى



دار العلم للملايين - بيروت

ABDEEN

الشاهنامه

الشاهنامه

ملحمة الفرسان الكبرى

للأبي القاسم الفردوسي

ترجمة: سمير ماضي

دارالعلم للملادين

ص.ب. ١٠٨٥ - بيروت

ABDEEN

ما قبل الانشقاق

في البدء ، مَلِكَ العالم كله مَلِكٌ يُدعى جيومرت ،
وقد خصّه الله بعناية فائقة . فبالإضافة إلى قوته وشهامته ،
حبّاه جمالَ الوجه وبهاء الطلعة . وجَعَلَ مركزَ إقامته في
الجبال ، ومنه انتشرت الحضارة في العالم . وارتدى جيومرت جلد
النمر ، فكان سَبَّاقاً في هذه البِدعة ، لأن الثياب كالطعام
تماماً لم تكن قد عُرِفَت بعد . وكان جميع الإنس والجن
يخضعون لمشيئته ، فازداد عظمةً وجبروتاً مما أدى إلى
انبثاق الديانة .

وكان لجومرت الملك ، ابنٌ يُدعى سيامك ، أحبّه
حُبّاً جَمّاً ، وربّاه تربيةً جديرةً بالملك ، مُحافظاً
عليه ، مُبعداً إياه عن كل أعمال الجن والسحر . فلما

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٧٧

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

نشأ ، وظهرت منه بوادر السلطنة ، ظهر له عدو من الجن ، أخذ يتتبع تنقلاته وأفعاله ، قاصداً إهلاكه . فلما علم بذلك ، قرر محاربة ذلك الجني ، فنزل لملاقاته لابساً جلد النمر . لكن الجني سرعان ما أنشَبَ مخالبه في صدر سيامك ، فأرداه قتيلاً غير آبه بجبال منظره ، وجلال طلعه ، ومُلكِ أليه الواسع .

عَلِمَ ملك الملوك جيومرت بموت وحيده ، فحزن عليه حزناً شديداً وتدفقت مشاعره أنيناً متواصلًا ، وزفيراً ملتهباً ، ودموعاً ساخنة جرت كالدماء . وجاء جميع القوم يشاركونه فجيعة . وبقي على تلك الحال سنة كاملة . وكان لسيامك ولدٌ يُدعى أوشهنج ، سلّمه جده مقاليد الزعامة والحكم . وقررا معاً مقاتلة الجني على رأس جيش مؤلف من الجن والحيوانات الضارية والأليفة . وبعد معركة ضارية جرت بينهما ، استطاعت الوحوش الفتك بالجني ، وأردته قتيلاً . وبذلك يكون الانتقام لدم سيامك قد تمَّ على أكمل وجه .

مات جيومرت بعد ثلاثين سنة من الملك ، وبقي أوشهنج ملكاً ، ذا رأي رصين ، مُحافظاً على سمات العظمة التي انتقلت إليه عبر أسلافه .

ذات يوم بينما كان أوشهنج على سفح أحد الجبال ، ظهرت له حية ، عيناها كبرك من الدم ، ولهبها دخان أسود يغطي العالم بدُكنته ، فتناول حجراً ، ورماه بها لدرء خطرهما ، فاصطدم الحجر من قوة الضربة بصخور الجبل ، وأحدث باصطدامه شعلة متوهجة . فأفلتت الحية ، وكانت النار .

سُرَّ أوشهنج باكتشافه ، فسجدَ شاكرًا ربه تعالى على تلك النعمة ، مُتخذاً النار قبلة ، وهذا سبب تعظيم النار عند الفرس .

لما خيم الظلام أشعل أوشهنج ناراً كبيرة ، انتشر وهجها في معظم الأرض ، حتى ظنَّ أن الشمس لم تغرب ، والنهار لم ينته . وظلَّ ملوك الفرس أباً عن جد يحتفلون بتلك الليلة الفريدة التي أصبحت عيداً يُعرف بالسَّدق . استمرَّ أوشهنج حاكماً بمعونة الله ، مستغلاً كل شيء من حوله لخدمة شعبه . فاستخرج الحديد من الحجر ، وصنع منه القووس والحرايب . وشقَّ الجداول إلى الصحارى ، وبذر البذور فيها ، ونمّأها بالمياه ، واتخذ من جميع البهائم كل نوع يصلح للعمل كالبقرة والحمر وغيرها ، واصطاد الحيوانات البرية ، واستعمل جلودها للملابس والمفارش .

فعمَّ الرخاء والعدل عهده ، وطاب العيش . لكن سيف
المنية لا يُبقي على حيٍّ ، فعاجله الارتحال عن هذا العالم ،
ومات بعد أن ملكَ أربعين سنة .

ومات الأب ، فتولى الابن طهمورت الملك والقيادة
الحكيمة . وأخذ يتدرج في اكتشافاته من حقل إلى آخر ،
حتى استطاع ان يروِّض الوحوش الكاسرة .

وحدث ان الجن تآزروا ضده لأنه سجن عفريتاً منهم .
فما كان منه إلا أن حاربهم وانتصر عليهم ، وسجن الكثير
منهم ، فما استطاعوا احتمال حياة الذل والقهر ، فعاهدوه
على تعليمه الخط والكتابة على ثلاثين نوعاً من الألسنة
المختلفة ، إن هو أطلق سراحهم . فكان ذلك بداية لانتشار
الخط بين الخلق .

الانشقاق

سار جمشيد على خطى أجداده بعد وفاة أبيه طهمورت .
فأحسنَ معاملة شعبه، ونشر بينهم العدل والإحسان والرحمة .
وبفضل ذكائه ، تفنن في صنع آلات الحرب من سيوف
ورماح وخيود ودروع حتى استكفى . واتخذ الكتَّان
والحرير والصوف بعد غزلها ونسجها مادة للملابس .
وانتشرت الصناعات ، وعمَّت أقطار الأرض . ووضع
الجن تحت إمرته وسخرهم بأعمال صعبة ، وقسم الناس
إلى كهَّان ومحاربين وزرَّاع وحرفيين ، وبنى المدن ،
واستخرج المعادن النادرة . وعرف أسرار الصناعة الطبية ،
وما يستتبعها من علوم ، كعلم الأدوية . وتنقل بمركبة في
أطراف الأرض ، وطار إلى كل الممالك على سرير مرصع

بألوان الجواهر ، حَمَلَهُ الجن في أول يوم من السنة
وقت حلول الشمس في برج الحمل . فَسُرَّ سروراً
عظيماً ، وانتشى بأقداح الخمر ، لِيُعْرَفَ ذلك اليوم
بالنيروز ، وليبقى عرفاً مقدساً عند الفرس . فلما استكمل
جميع أسباب العز والرخاء ، تَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ وَتَسَلَّطَ
وتخلى عن المعونة الإلهية . فاضطرب حكمه ، وعمت
الفوضى ، ودبَّ الذعر ، وانتشر الفساد ، وهرب العلماء
والحكماء ، وارتجَّت بذلك الأرض والسماء .

انشقَّ ملوكُ الفرسِ أجمعون عن طاعة ملكهم الأكبر ،
واستبدوا في الرأي والملك ، واجتمعوا إلى الضحَّاك ابن
ملك العرب ليخلصهم من جمشيد . فما كان منه إلا أن
نصَّب نفسه ملكاً عليهم ، وقصد جمشيد الذي هرب إلى
أرض الهند واختفى ليظهر بعد مرور مائة سنة . فقصد
الضحَّاك ثانية ، وقضى عليه ، آمراً بقتله بالمنشار بعد حكم
دام سبعمائة سنة .

أما الضحَّاك ، فهذا لقبه ، وهو بيوراسب بن مرداس
ملك العرب الذي عُرفَ بصلاح حكمه ، وحبه لشعبه .
وهو شاب يقني آلاف الخيل المرسجة بسروج الذهب
والفضة ، والمرصعة بالجواهر الثمينة . يحب اللهو والطرب

والصيد والطرْد . وكان له من الجن خادمٌ يُدعى إبليس ،
وضع نفسه في خدمة الملك الشاب بعد أن ظهر له في زي
شاب جميل . فلما نال ثقة الملك بخدماته المرضية ، استطاع
أن يفرض رأيه ، وان يُغري الملك الشاب باستلام الحكم
من والده بقتله ، وفرضَ سيطرته ومُلكه على العرب
أجمعين .

لكن الضحَّاك تردد في بادئ الأمر ، فكيف يقتل
والده دون أن يُجَازَى على فعلته ؟ أما إبليس ، فظلَّ
يُوسَّوس للضحَّاك حتى وافق هذا الأخير على قتل والده .

وذات ليلة ، كان الملك الأب قد خرج ليتطهر في
بستان اتخذهُ لخلواته وعباداته ، فسقط في بئر مغطاة
بالحشيش . ولما لم يستطع النهوض ، جاء إبليس وطمرها
بالتراب ، وسوَّأها بالأرض ، وانتهى من الملك الأب
ليسلم ملكَ العرب إلى الضحَّاك . لكن إبليس عاد وظهر
في شكل طبَّاح ، بعدما استلم الضحَّاك ملكَ أبيه .
فقَبِلَهُ هذا الأخير في خدمته ، وسلَّمه مطبخه الملكي .
فصار يتفنن في صنع الأطعمة ، معتمداً في أصنافها على
لحوم الحيوانات بعدما كانت النباتات تشكل الطعام الرئيسي .
أعجِبَ الضحَّاك بصنيع هذا الطَّبَّاح ، فأحبَّ أن

ووصلت أخباره المشارق والمغارب تبشّر بزوال ملكه
ودنو أجله .

ذات ليلة كان نائماً ، فرأى رؤيا ، قضت مضجعه ،
وأزعجت نفسه . فلما استفاق ، جمع جميع العلماء والمنجمين
والكهّان والسحرة ، وأمرهم بتفسير تلك الرؤيا . لكنهم
لم يستجيبوا لأمره ، لأنهم لو فعلوا ، لبطش بهم ، ثم
جمعهم مرة ثانية وثالثة وألحّ عليهم بالسؤال عن أخبار
ملكه وزوال عهده . فتقدم من بينهم حكيم طاعن في
السن ، قد مارس العلوم ، وعرف الأحكام ، وعبدَ
الله تعالى ، فأورثه علماً كاملاً ، وأدباً بارعاً . فقام وقبّل
الأرض وقال : « لم يُخلق إنسان للبقاء ولا للخلود ،
فاستعد لاستقبال أمر ربك الباقي الوحيد ، الذي قضى أن
تكون نهاية حياتك ومُلكِك على يد ملك اسمه أفريدون
لما يولد بعد » .

صعق الضحاك من كلام الحكيم . فأمر في طلب
أفريدون ، مرسلًا الرُّسل في أطراف البلاد للفتك به
والتخلص منه .

يكرمه ويحسن اليه . فسأله : « ماذا تطلب ؟ » .

أطلق إبليس لسانه بالدعاء ، داعياً للملك بدوام ملكه ،
وثبات عزه . وطلب منه أن يقبل منكبيه . فقَبِلَ الملك
متعجباً ، وتقدم إبليس مقبلاً منكبيه . فما ان فعل ذلك ،
حتى غاب عن الأبصار ، واختفى في الأرض ، وظهر من
كل منكب حية سوداء أرعبت الملك والجمعَ وأفزعتهم .
حضر الأطباء والحكماء ، ونصحوا الملك بقطع المنكبين .
فلما قُطعتا نبتتا في الحال كما كانتا ، وظلتا على ذلك حتى
عجز كل الأطباء عن مداواة ذلك الداء . ثم ظهر إبليس
متنكراً بزى طبيب ، وقال للملك : « إنه قضاءٌ أجراه
الله عليك ، ولا بد من تربية الحيتين وإطعامهما من أدمغة
الناس حتى تستريح . فإن فعلتَ ، قلّ اضطرابهما ،
ونخفَ أذاهما » .

وكان مُرادُه من ذلك كله ، أن يبسط الملك يده في
قتل خَلق الله تعالى ، وسفك دمائهم ، حتى يخلص العالم
من كل أبنائه .

مضت السنوات والضحاك ما زال كل ليلة ، يأمر
برجلين يُقتلان ويُسْتَخْرَج دماغها طعاماً للحيتين . واستبدَّ
بالخلق ، ونشر الرعب والذعر والجور في نفوس شعبه .

أفريدون

وُلِدَ أفريدون في تلك السنة ، صبيّاً جميلاً تختال على وجهه أمارات السعادة والمُلْك . فربّته والدته ، وأدّبه تأديباً جيداً . أما والده ، فقَتِلَ مع الذين قتلهم الضحّاك ليطعم دماغهم للحيتين .

خافت الوالدة على ولدها من شر الضحّاك ، فهربت به الى مرج تكسوه الخضرة ، ينحصرُ راعياً يملك قطعاناً كبيرة من الغنم والبقر . فتعهدت للوالدة بالمحافظة عليه ، وأخذت يغذّيه من لبن بقرة خلقها الله على لون يسرُّ الناظرين ، ويعجب الخلائق أجمعين .

رجعت الوالدة بعد مضي ثلاث سنوات تريد أخذ ابنها ، لأن بطش الضحّاك كان قد تفاقم ، وانتشر بأسه وظلمه

في الأقطار التي يحكمها . فأخذت الولد ، وهربت به الى بلاد الهند ، وقصدت جبلاً عظيماً قريباً من أرض الهند ، يقيم عليه راهب متنسك فاسترحمته ورجتته وأطلعتة على سرها ، وسر ولدها . فقبل إيواؤه ، ولم يزل يربّيه ويعلمه مكارم الأخلاق ، ويهديه الى مناهج الخيرات حتى نشأ وترعرع . فلما راهق ، نزل من الجبل وزار أمه ؛ فأعلمته بما كان مخبئاً عليه . فقرر الثأر لدم أبيه . لكنها نصحته بالتروي وأخذ الأمور بالمهادنة ، لأن فورة الشباب التي تتأجج في دمه قد تخونه ، فلا يستفيق إلا وهو نادم .

أما الضحّاك ، فان اسم افريدون كان يهز عرشه ويقضُّ مضجعه . لذلك قرر دعوة كل حكيم وعالم وأجبرهم على توقيع محضر يقرّون فيه كذباً بأن الملك ما زال مثابراً على بث العدل والإنصاف بين الرعية ، وأنه يعمل ، كل ما يعمل ، من أجل راحة قومه وخلص شعبه . وبينما هم يشهدون على ذلك المحضر ، إذا بصراخ عظيم يملأ الأسماع من باب الإيوان . فلما سأل الضحّاك عنه ، أجيب بأنه صراخ حداد يُدعى جاوه ، جاءَ يشكو أمره . فسمح له بالمشول بحضرته ، فلما تمثّل وقدم إخلاصه قال : « يا أيها الملك ، مالي أراني قد انتقيت من البشر أجمعين

لأقدم آخر أولادي طعاماً للحيثين ، وأنا الذي كان بالأمس
قد قدّم كل اولاده » . فأمر الملك برد ولده عليه ،
واستعطفه بالإحسان اليه ، وطلب منه أن يشهد على المحضر
المُعَد . فأخذه بيده ، ورأى عليه معالم العُبَاد والزهاد
والعلماء . فاستشاط غضباً ومزق المحضر ، وصرخ فيهم
داعياً إياهم للتخلص من حكم الملك الجائر ، وتوجّه إلى
محلّه في المدينة ، وأخذ قطعة جلد يغطي بها الحداد قدمه
عند تطريق الحديد المحاة ، ورفعها على رأس عصا تشبه
العَم ، وأخذ يُنادي بطاعة افريدون . فتبعه من المظلومين
خلق كثير ، وتوجهوا معه قاصدين أفريدون . فلما رأهم ،
أيقن أن تبشير صُبْح دولته قد همت بالطلوع ، واستبشر
خيراً بتلك الراية المرفوعة ، وكانت تسمى « درفش
جاويان » . وظلّ ملوك الفرس يتوارثونها بعدما رصّعوها
باللآلئ واليواقيت ، وزينوها بالديباج والحريير ، فكانت
بشرى للسعادة والنصر أتى رُفِعت .

أما افريدون ، فقد توجّه إلى والدته قاصداً لإخبارها ،
عازماً على منازلة ذلك الظلوم الغشوم ، واستشار لذلك
صديقين له من أولاد المرازبة ، مخصوصان برزانة الرأي
ورصانة العقل ، وأمرهما بأن يحضرا له عند أحذق الصناع

وأذكاهم ، جرزاً من الحديد على شكل بقرة كان قد
استحدثها بفكره ، وأخذ يجمع العدة لمنازلة الضحّاك .
فلما تمّ له عدد وافر من الرجال والأبناء والبُهَم ، قطع
بهم الصحارى والجبال ، فوصل إلى شاطئ دجلة يريد
عبره بالزوارق والمراكب الموجودة . فامتنع أصحابها عن
ذلك طالبين منه جوازاً من الملك نفسه . فاحتدم غيظاً ،
وعبر النهر على سروج الخيل . وتابع إلى أن قرّب من
بيت المقدس ، فرأى القصور المنيعة ، والشرفات العظيمة ،
فعلم أنها للضحّاك . ثم أمر جنوده بالهجوم عليها بغتة قبل
انتباه أصحابها إلى وجودهم ، ففعلوا ودخلوا المدينة
واحتلوها . وتوجّه افريدون إلى الإيوان الرفيع والقصر
المنيع ، فدخله ظافراً ، وممّلك كل ما فيه من ذخائر
وجواهر ، وأطلق سراح مسجونيه . وكانت بينهم شقيقتان
لجمشيد ، كان قد أسرهما الضحّاك عندما استولى على
المُلْك . فلما رأيا افريدون ، سالت دموعهما ، وأخبراه بأن
الضحّاك ذهب مع جحافل عسكره إلى الهند لسفك دماء
شعبها ، واستباحة ذخائرهم وأموالهم على عادته الذميمة ،
وسيرته القبيحة .

جلس افريدون على عرش الضحّاك بين معاونيه وجواريه

ودخل عليه وزير الضحك كندرو ، فخرّ ساجداً بين يديه ، وأطلق لسانه بالدعاء لاستدامة ملكه العلي ، وتحادثا طويلاً عما قاساه الناس من ظلم الضحك . وفي الصباح ، مع طلوع الفجر ، ركب الوزير حصانه وتوجه إلى الضحك ليعلم ماذا هو فاعل بملكه . فلما وصل ، دخل عليه وأخبره بانتصار أفريدون وبأنبائه الباهرة . فاحترق غيظاً وأمر عسكره بالارتحال ، فنهضوا وساروا متجهين نحو بيت المقدس ، فلما وصلوا ، هجموا بغتة كالسيل المتلاطم والليل المتراكم ، ونزلوا قتلاً وسفكاً بأهل المدينة . فأخذ هؤلاء ينادون بشعار أفريدون ، ويستعيذون بأمانه . فاحتمى غيظاً وأخذ وهقاً ، وتسلق قصره خفية ، ودخل من أعلى الإيوان على أفريدون ، فألفاه جالساً مع جواريه ، فعلق الوهق وصوبه تجاه أفريدون ، ونزل عليه كالسهم الملتهب . لكن أفريدون استطاع أن يتنحى عن طريقه ، فوقع بين يديه ، وهمّ أن يذبحه من الوريد إلى الوريد . لكن الملك الذي مثل فجأة بين يديه ، نهاه عن ذلك ، وعوضاً ، أمره بتعذيبه وحبسه في جبل دُنياوند طوال الزمان . ففعل واقتاده إلى مغارة في ذلك الجبل فقيده وسمّره وأودعه هناك يُعذّب فيها إلى يوم القيامة لسوء عمله وقبح أثره .

استهله أفريدون عهده بمجلس عظيم حضرته الخاصة والعامّة ، فدعوا له بطول البقاء ودوام الملك . وأخذ يشرب معهم من أوانٍ مكلّلة باللآلئ ، وفضيّات موشحة بالجواهر . ودخلت المغنّيات والجواري المسمعات ، وانتشر الغلمان يديرون الأقداح . وأمر أفريدون بنثر الدنانير على الحاضرين ، حتى بات المجلس كأنه روضة أو فردوس . فأصبحوا وأمسوا حتى اشتهر ذلك النهار وعُرفَ بعيد « المهرجان » . أما والدة أفريدون نامك ، فلما بُشّرت بما آل إليه ولدها ، هللت باكية ساجدة لله ، تغفرّ خدها في التراب . ثم أمرت بالجواهر للمبشرين ، وتصدّقت على الفقراء والمساكين شاكرة الله على ما خصّ ولدها من نعم . أخذ أفريدون ينظر في شؤون رعيته . فبسط العدل والإنصاف ، وهدم قواعد الجور والظلم ، وطاف في المشارق والمغارب حتى عُرف بحسن السياسة ، ووفور الرحمة والرأفة . ولما بلغ الخمسين ، رزق ثلاثة أشبال من بنتي جمشيد فأخذ يربّيهم كما ربّي علي الطاعة والإيمان . فلما بلغوا أراد أن يزوجهم ، فاستدعى وزيره جندل وأمره بالتطواف في أنحاء البلاد مفتشاً عن أخوات ثلاث من البيوت الكبار والقبائل الشريفة ، يصلحن للاتصال بهؤلاء الأشبال .

انطلق جنادل في تطوافه سائلاً ، باحثاً ، مدققاً حتى
عثر على بُغية ملكه عند سرو ملك اليمن الذي وافق على
طلبه بعد التحاور والتشاور مع وزرائه وأركان دولته خشية
التعرض لغضب أفريدون .

ذهب الأشبال الثلاثة إلى حضرة ملك اليمن ، فبقوا
عنده ردىاً من الزمن ، ثم عادوا مع زوجاتهم الى حضرة
أبيهم . وبينما هم راجعون ، أراد والدهم أن يمتحنهم ،
فتنكر بشكل تين ضخمة ، تكاد الأسود من منظره ترتطم .
فتنطح لهم طالباً منازلهم . فهرب الابن الأكبر آثراً السلامة ،
فسأه والده فيما بعد « سلم » . وأخرج الأوسط سيفه
لمحاربتة ، فسأه « تور » . أما الأصغر فهدده باسم والده
الملك أفريدون ، وأمره بالانصراف إن هو أراد أن يبقى
حياً ، فسأه « أيرج » . ثم قسم ممالك الأرض فيما بينهم ،
فعيّن لسلم أرض الروم وبلاد المغرب وما تاخها من الممالك ،
ولتور بلاد الصين والترك وسائر ما يُضاف إليها من تلك
الولايات ، ولأيرج ممالك العراق مع أرض بابل إلى آخر
بلاد الهند ، وجعله وليّ عهده ، واهباً إياه إكليل حكمه
الرائع ، وعرشه الباهر ، وفضاء مملكته الواسع . فحكم
الثلاثة في بادىء الأمر بسلام وسعادة ، لا تشوب عهودهم

شائبة ، ولا تفر همهم عن نشر المحبة والرفقة والإنصاف .
مرت السنوات تلو السنوات ، فوجد سلم أن أباه قد
آثر ايرج بالعرش الباهر ، وأفضل الممالك ، وأنه زحزح
الآخرين الى طرفين بعيدين من نواحي الأرض . فامتلاً
قلبه غيظاً ، وتراسل مع شقيقه الأوسط مُحَرَّضاً ، مطالباً
بالمُلك ، وحثته في ذلك انه كان من الأجدد بوالده أن
يجعله ، هو الأكبر وليّ عهده ، فإن لم يرد ذلك جعله
للأوسط ، ولكن ، ليس للأصغر لِصِغَر سنه ، وخور
عنان عقله . فاجتمعا ، وتعاهدا على السراء والضراء
والمطالبة بتغيير ما قرّر لها . وأرسلا رسولاً إلى والدهما
يُعلمانه بما قررا ، فإن أبى ، حولاً ملكه الواسع الى أرض
خراب ، وملكا التاج والعرش قهراً .

امثل الرسول في حضرة أفريدون ، وبعدهما اطمأن
الوالد الى قُرتي عينيه ، وفلذتي كبده ، وسأل عن أخبار
ممالكها الواسعة ، اعتذر الرسول عن الكلام الذي سيتفوه
به ، فطلب الأمان ، فأعطي له ، وأخبره عما يدور
في خلد ولديه من دسائس ومؤامرات . فاتغظ افريدون
غيظاً ، واستشاط غضباً ، فأبرق وأرعذ وأعذر وأنذر .
لكن ايرج هدّاه ، وعن غضبه أرجعه وقال له :

كانت الممالك لا تُحكَم إلا بالمداورة والمناورة ، رأيت أن أركب اليهما ، وأخفف من حسدهما ، علي أجد في ذلك السبيل الشافي والعذر الوافي لإنقاذ ممالكنا الواسعة من هلاك عظيم . فاتجه اليهما على رأس جماعة صغيرة من العسكر ، فلما وصل تلقياه بالإجلال والأبهة ، وترجل إعظاماً لقدرهما ، وإكباراً لمقامهما . فتلاقوا وتعانقوا وتجادبوا حلوا الحديث . وتمكن ايرج بما لديه من لطافة اللسان ، وحسن الكلام أن يلين عريكتيهما ، ويتزع الغلّ من صدريهما . فتصافوا وتراضوا ورجعوا إلى ما كانوا عليه في غابر الأزمان .

ثم ان أهل تلك الممالك لما رأوا ايرج وما عليه من رجاحة العقل وجمال المحيّا ، تهامسوا وتسامروا عن خصائله وفضائله ، فكان لا يجتمع اثنان من أركان تلك الدولة وأعيانها إلا وكان ذكْرُهُ سبحة لسانها وراحة أرواحها ونزهة قلوبها ، مما أثار الحقد الدفين في النفوس الحاسدة . فاجتمع الثلاثة يتفاوضون في أمور المملكة ، وجاؤوا على ذكر أبيهم ، وما لقياه من ظلم وجور في تخصيص التاج والعرش لايرج ، فتردد في الإجابة مُدْعياً انه خرج من تلك المملكة متحاشياً كرهها ، ومتوخياً رضاها . فأخذوا في الحديث حتى ثار تور كالسهم المشتعل ، وأخذ كرسياً

من ذهب كان تحته ورماه على ايرج . فتضرّع هذا الأخير وأجهش بالعويل ، مما زاد تور ثورة ، فأخذ خنجراً وأغمده بشباب أخيه الناصر ، غير مُراعٍ لله تعالى حرمة ، وللشعور الأخوي ذمة . فمات كالشمس الغارقة وقت الشفق في نسيج دمائه . ثم حشاه مسكاً وكافوراً ، ووضع في تابوت مصنوع من ألواح الذهب ، وأرسله إلى والده .

استقبل أفريدون جثمان ولده بالندب والعويل ، وفاضت دموعه كالأنهار الدافقة ، وأمر بهدم دار ايرج وإحراق بستانه ، واصطفّ من حوله الأمراء والوزراء يشاركونه مصيبته . وظلّ على هذه الحال حتى نبت العشب حواله من فيض دموعه ، فكفّ بصره وهو ما زال يسأل الله تعالى أن ينتقم له من الفاتكين بولده السافكين لدمه . وكانت لايرج جارية حملت منه بنتاً فزوجها افريدون إلى ابن أخيه بشنج فولدت منوجهر .

سُرّ افريدون بولادة منوجهر ، ورد عليه الله تعالى بصره ، وأخذ يربي منوجهر أحسن تربية ويعلمه آداب الملوك أحسن تعليم . فنشأ شاباً رشيقاً قوياً برعاية افريدون الذي وهبه كل أمواله ، وجواهر خزائنه الدفينة . أذيع في الممالك أن منوجهر ينوي الثأر لدم ايرج . فما

كان من سلم وأخيه تور إلا أن أرسلوا رسولا يستقصي حقيقة الأخبار . فوصل الرسول وأدخله سابور إلى حضرة الملك . فصُعِقَ لرؤية افريدون الجالس في صدر الإيوان مُحاطاً بحافل العسكر ، وقد أقعد منوجهر على سرير من العاج ، مُحيطاً إياه بالأمراء والقواد . فلما أدى الرسالة ، رجع إلى سلم وأخيه في أرض المغرب ودخل عليها في خيمتها المصنوعة من الديباج ، وأخبرها عما رأى من جحافل الجيوش التي لا تُعد ولا تُحصى ، وعن عزم منوجهر في الثأر القريب . فتأهبوا للحرب وأمر القوادها في التوجه إلى أرض المعركة . وهناك التقى الجيشان وتلاطما كالسيل الجارف ، وظلا على هذه الحال ثلاثة أيام .

دبَّ الضعف في عساكر الترك فرأى تور أن يباغت عساكر منوجهر تحت جنح الليل ، فيهربون طالبين من الليل ملجأ ، ومن النهار فراراً . لكن منوجهر علم بخططه فاستبقه بثلاثين ألفاً من العساكر ، وانتظر قدومه . فلما جاء طلع عليه بحافله كالفجر المشع ، وتمكن منه في مبارزة أطاحت برأسه . فلما مات دبَّ الخوف في صفوف جنده فاستسلموا له . ثم كتب إلى افريدون يعلمه بالنصر المبين باعثاً مع رسله رأس تور . فلما رآه افريدون تفجرت

مآقيه دماء من حيث أن قلوب الآباء ترق على الأولاد ، وقد تذهب الشدائد بالأحقاد .

أما سلم فلما علم بنجر أبيه ، قصد حصناً كان قد أعده ملاذاً لنفسه ، فلما دناه ، لم يجد إلا مركباً واحداً يوصله إليه . فلاقاه منوجهر وتبارز معه وفصل هامه عن جسده . أما الحصن فقد تحول إلى أطلال مندثرة لأن منوجهر كان قد استولى عليه بخططة محكمة وأنزل السيف في رقاب حارسيه ، ونهب جميع ما فيه ، وخرّب به وأحرق المراكب التي توصل إليه .

رجع منوجهر إلى حضرة افريدون ، فخفّ لاستقباله في مواكبه ورجاله ، وأخذ يقبله ، ويمسح بيده غرته ووجهه ، وأمر بتوزيع الغنائم على العسكر شكراً لله تعالى على ما فعله من أجله .

أما افريدون فقد ضجر الحياة بعدما طعن في السن ، وأخذ ينتظر المنية سائلاً الله ان يعجل في ارتحاله إلى دار البقاء . فلما قربت وفاته ، استدعى منوجهر وسلمه العرش والتاج ، وأمره بإفاضة العدل والإحسان ، وإشاعة الأمن والأمان ، وأخذ من الملوك والأمراء عهداً تُبايع فيها لمنوجهر ، ومات بعد أن ملك خمسمائة سنة .

الأبطال الثلاثة

سار منوجهر ثامن ملوك الفرس على خطى جده ،
فحكم بالإخلاص والإنصاف ، ونشر العدل والرخاء ، وعمّر
العالم بالحب والإيمان ، وحرّض الخلائق على عبادة الله
تعالى والابتعاد عن معاصيه واتباع أوامره ونواهيهِ . فأخلص
له شعبه ، ودعوا بثبات دولته ودوام مدته .

في هذا العهد ، كان يوجد رجل عظيم وبطل صنديد
يعرف بـ « سام بن زريمان » ، رزقه الله ولداً كالقمر إضاءةً
من جارية كانت في خدمته . لكنه لشعره الأبيض ، أخذه
والده إلى جبل البرز في أرض الهند وتركه هناك .

ولما كانت رحمة الله واسعة ، وحبّه لخلقه لا يحده حد .

فقد أنزل شفقة في قلب عنقاء كانت هناك . فنشأ وترعرع
بين أفراخ العنقاء إلى أن كبر ورأته القوافل المارة من
ذلك الجبل . فتعجبوا لما رأوا ، وبلغت تعجباتهم أسماع
سام الذي كان قد رأى في منامه رسولاً أبلغه أن ولده
ما زال حياً في الجبل الذي تركه فيه . فتوجه مع الناظرين
باكياً مُسترحماً ، مستغفراً تائباً ، سائلاً الله أن يرد عليه
ابنه . فلما علمت العنقاء بالبحث الجاري عن دستان ، وهو
الاسم الذي أطلقتته على الرضيع ، أعطته ريشة من جسدها
طالبة منه أن يحرقها إذا شعر بأي أمر محقق فيه ، فتمثل
بين يديه . ثم حملته بين جناحيها وطارت به وسلمته إلى
والده . فلما رآه ، بُهر بسناء وجهه وطول قده . فسجد
شاكراً الله على صنيعه وكرمه ، وردّ ولده . وتوجه بدعائه
إلى العنقاء على فعلتها السمحة . ونزل مع ولده من قمة
الجبل إلى أسفل السهل . فلما نظرهما الجنود ، هللوا هازجين
وبالبشائر معلنين إلى أن وصل الخبر إلى منوجهر ، فأرسل
ولده نوذر للسؤال عن الحال ، ومصاحبته في الحل
والارتحال . فلما وصل استقبله سام أجمل استقبال ، ورجع
معه بصحبة دستان إلى حضرة ملك الزمان . وعندما وصلوا
استقبلهم منوجهر بشخصه ، وأنزلهم بنفسه أحسن منزلة .
وأمر بإدخال دستان عليه . فلما دخل ، بدا كالشمس

الباهرة بين النجوم الزاهرة ، وقد رصع نفسه بالآلئ والجواهر مما زاد شمائله ومخايله بهاءً ورونقاً . ففرح منوَجهر ببقائه . وخصه بنفسه ، وأمر المنجمين بالاطلاع على أحواله . فبشروه بمستقبل زاهر وعز سائد . وأرسله مع والده لتولي أمر ممالكه الواسعة ، طالباً من سام استخلاص مملكة مازندان التي استولى عليها بعض الرجال المارقين . فذهب لتنفيذ أوامر ملكه ودعا بابنه مكانه . وأمر الوزراء والنصحاء بتحريضه على مكارم السير وتأديبه بمحاسن الشيم .

ثم إنه في ذات يوم ذهب للصيد قرب أراضي كابل التي تحت إمرة ملك شاب يُسمى مهراب . فلما سمع به الملك ، رحب به أجمل ترحيب . فأعجب به دستان لما له من حسن الوجه وطول القامة ، وأبهة الجلال والمنظر ، وعدوبة المنطق . وأخبروه بأن له بنتاً كالشمس الشارقة ، ووصفوها ، فاستهام في حبها دون رؤيتها . وبعدما انقضى النهار ، ذهب مهراب لزيارة دستان . فأكرمه وأحسن وفادته ، وطلب مهراب منه أن يتكرم بزيارته ، فلما أبى معتذراً بطلب الإذن من الوالد ، رجع إلى قصره وجلس مع زوجته وبنته رودابة ، محدثاً إياها عن شعر دستان الأبيض المنسدل على عارضيه كأوراق الاقحوان على شقائق النعمان . فكأنه لا يصلح لحمرة وجهه غير بياض شعره ، ولا لبياض

شعره غير حمرة خده . فهامت به رودابة حباً ، وصدق فيها القول صدقاً ، حين قال : « لا تصفوا محاسن الرجال لربات الحجال » . وأصبحت تُصبح وتُمسي بذكر اسمه . ولما لم تتمكن من إخفاء لواعج حبهها ومكامن قلبها ، باحت بسرها إلى جوارٍ عندها ، فنصحوها بالصبر والتأني ليرين ما يتدبرن بأمرها . ثم ذهبن للحال إلى معسكر دستان ، وأخذن يقظن الورد والريحان . حتى رأهن دستان . فسأل عن أحوالهن ، فأجيب بأنهن خرجن من قصر الملك مهراب . فأخذ قوسه وسهامه ، واصطاد طيراً من الطيور ، فوقع بجانبهن . ولما ذهب غلامه لجلب الطير سألته عن ذلك الصائد الشاب ، فعرفن منه أنه دستان صاحب الطلعة البهية ، وابن سام ملك الهند والجوار . فلما أخذ في وصف سيده ، أخبرنه مجاوبين عن حُسن رودابة ، فما كان من دستان عندما سمع باسمها ، إلا أن حملهن الجواهر النفيسة ، باثاً لواعج حبه ومخابىء قلبه في أذن واحدة منهن ، ترددت فيما بعد على العاشقين حتى تواعدا على الاجتماع . وفي ظلام ليلة داكنة ، اجتمع الشمس والقمر وطال بينهما الحديث والسمر . ولما أصبحا ، افترقا وتواعدا على اللقاء كلما سنحت الفرص . فلما طالت بهما الحال ، قرر دستان الزواج من رودابة ، فأرسل في طلب

الكهّان والعلماء ، وأخبرهم بما قرر . فنصحوه صبراً لأن الملك منوجهر وسام بن نريمان لن يرضيا بمصاهرة أنساب الضحّاك لما بين الاسرتين من تنافر وعداء . فقرر مراسلة والده مُتضرّعاً اليه ، مسترحماً إياه ، مذكراً بوعوده يوم عثوره عليه .

كُتِبَت الرسالة وَضُمِّخَتْ بالكافور ، وأرسلت مع رسول الى مقر سام في مملكة مازندان . فلما قرأها هاج وماج ، ثم أخذه الوجوم وتناوبته الهموم . وأخذ يفكر بما هو فاعل لاسترضاء الملك منوجهر . فجمع الحكماء والمنجمين ، وتركهم مجتمعين عليهم يدلونه على الحل السعيد . فلما انتهوا ، سُروا بما أطلعتهم عليه النجوم ، والدلائل التي بدأت تحوم . وأخبروا سام أن المصاهرة ممكنة والزواج المستعصي سيتم ويولد منها ولد يملأ الدنيا مهابة وقهراً ، وشهامة وفخراً ، ويرفع تاج السلطان الى أوج العمران ، وأنه سيشتهر والأسماع به ستفتخر . فلما سمع سام ذلك ، فرح بما أخبر وأرسل الرسول لإبلاغ دستان بالموافقة . وتوجّه الى حضرة السلطان لاستئذانه في إنشاء هذه المصاهرة .

وصل الرسول الى دستان وأعلمه بالموافقة . ومن شدة فرحه أرسل عجوزاً إلى رودابة كانت تتردد بينها .

فأعلمتها بالخبر اليقين والقصد المبين . فتهللت مَرِحاً ورقصت فرحاً وأهدت العجوز عباءة من القصب منسوجة بالذهب . فخرجت بها فرحة، ورأتها «سين دخت» والدة رودابة ، فارتابت بأمرها ، فحبستها وأقرتها وعلمت بما كان بين دستان ورودابة . ثم ذهبت وأنبت ابنتها ، ففضحت الأخرى نفسها وأعلمتها بما تكنه في قلبها من حب لزال (دستان) بن سام ، وموافقة هذا الأخير على زواج ولده بابنة مهراب . فهدأت قليلاً حتى التقت الملك مهراب الذي أخذ يسائلها عن تغير حالها ، وإبانة آمالها . فأخبرته بما عرفت . فغضب كالنار الساعرة ، لكنها نصحته وبخبر الموافقة هدّأته ، فاستكان قليلاً ، ومال الى معاودة الاتصال بين الدولتين .

غضب منوجهر عندما علم بأخبار ابن سام . فجمع القواد والوزراء وأفضى اليهم بخوفه من هذا الزواج الذي قد يثمر عن ولد يشابه الضحّاك بطشاً وجوراً . فامتنع عن الموافقة ، ورفض المصاهرة . ولما وصل سام الى حضرته تلقاه بالإعظام والإجلال وكل الإكرام ، وأمضيا ليلتهما بالحديث عن المصاعب التي لاقاها سام في إخضاع مملكة مازندان . وانتقلا فيها بعد من مجلس الى آخر ، ومن كاس خمر الى مجلس دنّ حتى أطاحت الخمر برأسيهما فناما نوماً طويلاً . فلما

حمله وغلا ثمنه بعد أن أخذت وعداً من زوجها بعدم التعرض
لحياة ابنتها . فلما وصلت ، دخلت على صاحب العز سام
وقدمت له هداياها . فأعجب بها لكنه تأنى في قبولها ،
لأنه إن قبلها غضب منوجهر ظاناً أنه صالح مهراب .
وإن لم يقبلها خسر وعده لولده ، فيطير صوابه ويزهق
حياته . لذلك قبلها على أساس أنها هدية لدستان . ثم
سمع المرأة التي طلبت منه الصفح والغفران وسألته التروي
والأمان فالشعب واحد على ما بينهما من اختلاف في الدين .
فهم يعبدون التماثيل والأصنام ، وشعب منوجهر يعبد الشمس
والنيران . ولا يصح أن يؤخذ الصالح في عدى الطالح .
وإن نسل الضحّسك لا يكون شراً كله . لذلك طلبت
الأمان لزوجها الذي لم يسلك منذ تصدّى لسلطنة كابل غير
طريق طاعته .

أعجبَ سام بالمرأة الكابلية وأعطاه الأمان بعد السؤال
عن الأحوال ، فأخبرته بأنها صاحبة مهراب ووالدة روذابة
التي من فرط جمالها وقع دستان في حبائل حبها .

أما سام فأخبرها بدوره من أن الميثاق ما زال قائماً ،
ووعده بالأمان لمهراب ما زال جارياً . وأنه بعث ولده
إلى الملك منوجهر سائلاً إياه العطف ، وأنه يظن أن

أصبح سام ، دخل على منوجهر ، الذي استبقه بالحديث
وأمره بأن يتجه إلى مهراب ويقتله ويضم ممالكه إلى بلاد
إيران . فسكت ولم ينبس ، وغادر وهو يعبس . وخرج
متوجهاً إلى الهند . فتناقلت الأخبار مجيئه ، ووصلت
أسماعها إلى مهراب وزال ، الذي لام نفسه لإشعال نار
الفتنة ، وإيقاد الثورة الميتة . وصمم على نفسه ، أن يصل
والده إلى رأسه ، إن أراد هذا الأخير محاربة مهراب .
فلما التقيا ، تصافحا وتعانقا ، وبثا لوع شوقها . فلان
قلب الوالد وتريث قليلاً في الأمر الذي جاء من أجله .
ونصح ولده بالتوجه إلى منوجهر محملاً إياه رسالة ، ذكراً
فيها أيام سعادته وهناء حياته ، مذكراً منوجهر بمقاماته
المشهوره ووقائعه المذكورة طالباً منه الرحمة والموافقة لطاب
ولده العاشق .

شاع في بلاد كابل تصميم منوجهر على الحرب والهدم .
فدخل مهراب يوماً على زوجته ، يؤنبها على فعلة ابنتها
الشنعاء ، مُصمماً على قتلها حتى يكف منوجهر عن غلوائه
ويمسك عن محاربتة . فهدّأته بالحيلة واقترحت عليه إرسالها
مع الهدايا الفاخرة والنفائس الباهرة إلى سام علّتها تأخذ
منه وعداً يُهدىء روعه ويكف حربته . فارتحلت بما خفّ

منوجهر سينفذ رغباته وأنه (أي سام) لا يمانع في مصاهرة من كان مثل مهراب قدوة ومنزلة . فسُرت المرأة بما سمعت ، ورجعت للتحضير للعرس الميمون ، وطمأنت مهراب بثبات ملكه ودوام عِزه .

أما « زال » الذي وصل إلى حضرة منوجهر ، فاستقبل بالترحاب ، ونزل على مضيفه كتزول المطر من الغمام ، والحقيقة من الأحلام . وسلم منوجهر كتاب والده فقراه ووعده خيراً ، ثم ذهب للشراب ، فدارت الكؤوس مريحة النفوس . فمثل دستان ونام . ولما أصبح ذهب إلى حضرة منوجهر ليتصبح ، الذي كان قد أمر العلماء والمنجمين بكشف مستقبل دستان العظيم . فلما اجتمعوا وتشاوروا ، أخبروه كما أخبر سام من قبله ، فانشرح صدره وأراح نفسه ، وأراد أن يمتحن دستان ، فأحضر كل عالم كان بحضرته وأمر ابن سام للتهيؤ وحل الألفاظ والطلاسم . فحضر وبدأت الأسئلة تنهمر عليه كالطر . فسأله واحد عن ثلاثين فارساً يعرضون على السلطان ، إذا عبروا نقص منهم واحد ، وإذا رجعوا فلا ناقص ولا زائد . وسأله ثان عن فرسين ، أحدهما أشقر كالنار والآخر أدهم كالقار ، لا يزالان يتراكضان ، يتعاقبان

ولا يتسابقان . وسأله ثالث عن روضة معشبة تروق للعيون بهجة . فإذا نزل عليها منجل جمع بين اليابس والرطب . وسأله رابع وخامس وسادس أما هو فأخذ يفكر وللأمر يدبر حتى قال : « للأول ، إنه الشهر فتارة يكون تسعاً وعشرين ، وتارة ثلاثين . وللثاني ، إنها الملوآن يتعاقبان ولا يتسابقان . وللثالث ، إنه الأجل يحصدنا كحصد النبات فيأتي على البنين والبنات من الشيب والشبان والفروع والاعصان . وللرابع » فلما انتهى ، أقرّوا له بالعلم الواسع والمستقبل اللامع . ثم أراد الذهاب إلى أبيه سام ، فطلب الملك منه أن يبيت عنده ليرى شجاعته في منازلة الفرسان ، فبقي ملبياً دعوته . فلما نازل الفرسان وقتل منهم أشجع الشجعان ، خلع عليه منوجهر خلعة مضافة إلى التاج والعرش ، والحيول العتيقة والغلمان الرشيقية . وأخبره بموافقته على الزواج السعيد . فلم يصدق ما سمع وللرسول آهرع طالباً منه لإخبار والده قبل مجيئه عن رضى الملك . فذهب الرسول إلى سام ، وبدوره أخبر مهراب الذي فرح وهلل وللأمر تهباً . وأخبر سين دخت التي بدورها أخبرت رودابة ، وأمرت بتزيين الدور والقصور ، وثرت اللؤلؤ والمرجان ، واستعدت مع المستعدين لاستقبال القادمين ، الذين ما إن وصلوا ، وبالقصر استقروا حتى عقدوا

الزواج في ليلة زاهرة لم تعرف الأخبار مثلها ، لا في جلال روعتها ، ولا في بُهرج رونقها ، وكثرة كرمها . حملت روذابة ، وقاست آلاماً مبرحة في فترة حملها . فلما دنا وقت الوضع ، غشي عليها من شدة الألم ، وأخذت والدتها تصيح وتصرخ حتى حضر « زال » ورأى أمر زوجته . فأخذ مفكراً وللأمر مدبراً . فقدح فكره بريشة العنقاء ، فأخذها وحرقتها وللحال حضرت ، وتنبأت للمولود الجديد ، وأشارت عليهم بإسكار المرأة ، وبشق بطنها وإخراج ولدها . ثم أمرتهم بتخييط الشق وبرتق الفتق ، وذهبت بعد أن أعطت دستان ريشة أخرى عوضاً عن التي أحرقتها .

أمر دستان بأحذق الصناع ، فجاء وفعل ما أمرت به العنقاء ، فإذا بالمولود صبيّاً قد صورّه الله على خلقه تعجب العيون وتروق القلوب .

أما والدته فقد ظلّ مغشياً عليها نهار وليلة ، وعندما استفاقت ورأت وليدها كأنه ابن عشر سنين ، قالت : « برُستم » ، أي قد خلصت ، فسمي الصبي « رُستم » .

تناقلت الأخبار أحوال رستم الذي كان يرضع من حليب عشر مرضعات ، فلما بلغ ثماني سنوات ، صار كالنخل البساق والصخر الشاهق . وكان لا يحمله مركوب غير

الفيل لضخامة جثته وقوة أكتافه . وظلّ يتزعزع حتى راهق وبلغ . وبقيت أخبار قوته تطغى على سائر الأخبار ، ومرة قتل فيلاً أبيض كان لوالده ، عندما هاج وقطع سلسله ، فلم يستطع أحد أن يقف بوجهه إلا رُستم ، الذي أخذ سيف جده سام ، وخرج إلى الفيل وضربه على رأسه فقضى عليه . وهاجم أيضاً قلعة شاهقة على الجبل الأبيض ، كان أجداده قد حاولوا دخولها فلم يتمكنوا . أما هو فقد دخلها متنكراً بزى تاجر ملح ، لندرة الملح فيها . فلما هبط الليل ، ثار في القلعة ، وقتل أهلها وعثر على كثر عظيم ، فأرسله إلى والده على ظهر آلاف من الإبل .

سُرّ سام بأخبار حفيده ، وأحبّ أن يراه . فرحل إلى مكانه ، مع أنفس الهدايا الموجودة في زمانه . فلما وصل دهبش من رؤية رستم الذي جعل على صورة تشبهه ، وبالفضائل امتحنه . فكان نعم ولد لأفضل ابن . وظلّ يتباهى بحمّله ومولده شاكراً العنقاء على صنيعها العظيم . ثم أقام مع أهله مدة حتى عزم على الرحيل ، فارتحل بعد أن أوصى ولده بأحسن الفضائل وأجمل الشائل .

عمرّ منوَجهر في السن . فلما أناف على مائة وعشرين

سنة دنت وفاته كما أعلمه المنجمون ، فطلب ولده نوذر
ورجاءه ألا يتجبر ، إن هو حكم وعلى العرش استلم .
ونصحه بالألا يحيد عن طاعة النبي الجديد (موسى) الذي
سيظهر بناحية المغرب . وأمره بالصبر إن حكمه ملك الترك
ابن بَشَنَل الذي سيغزو البلاد فلا يبقى ولا يذر . وإن
استصعب فعليه بزوال وولده رسم الذي سيدوخ بلاد الترك
ويفتك بالعباد انتقاماً له . ولما انتهى منوجهر من نصائحه ،
مات بعد أن حكم مائة وعشرين سنة .

٥

الأيام العصيبة

استلم نوذر ملك أبيه ، فاضطرب عهده ، لأنه حكم
وظلم وبنصائح والده ما عمل . فكتب الى سام مستعيناً به ،
فما ان جاء حتى تغيرت الأمور ورجعت الى ما كانت عليه
من قبل في عهد منوجهر .

في هذه الأثناء تناقلت الأخبار موت منوجهر واضطراب
حكم ولده ، الى أن بلغت آذان بشنك ملك الترك ، فرغب
في الاستيلاء على ممالك نوذر . فدعا قواده وأعوانه مستشيراً
بالأمر ، مؤلفاً جيشاً بقيادة ولده افراسياب وبطل دولته ،
طالباً منه الانتقام لقتلة تور وسلم . أما ولده الثاني أغريث
فنصح والده متمهلاً وبالتاريخ وقواد جيش نوذر ، قارن

وكشاسب معتبراً ، سارداً أخبار بطولات سام بن نريمان
حامي نوذر وساعده عند اشتداد الخطوب . لكن الوالد
عنفه وأنبه مُتهدماً إياه بالجن لأنه تقاعس مثل غيره عن
الثأر لدم أجداده .

وعندما أقبل الربيع ، تقدم بجيش ضخمة العدد نحو
جيحون . فعلم نوذر بذلك وتقدم بدوره الى دهستان على
رأس جيش بلغ مائة وأربعين ألف فارس يقوده هو وقارن .
فلما وصل افراسياب وضرب طوقاً بأربعمائة ألف فارس حول
نوذر وجنده ، بلغه خبر موت سام وانشغال ابنه بعزائه .
فأدرك أن الأمر بيديه ، وأن نوذر هالك لا محالة . وكان
له بباب دهستان رجلاً قوياً يُدعى بارمان طلب منازلة
أحد قواد نوذر . فلما استطلع قارن أحوال جيشه ، لم
يتقدم أحد لمنزلته إلا شقيقه قباد . فاستمهله قارن ليكبر
سنه وعلو شأنه عند الملك ، لكنه لم يرتدع ونزل للمبارزة .
فأخذ يتضاربان ويتطاعنان طول اليوم حتى وقع قباد عن
فرسه منكوساً . فاحتدم قارن لرؤية أخيه ميتاً . وهجم
بجيشه طالباً الثأر إلى أن غربت الشمس ، فرجع الى نوذر
وأطلعه عن سوء الأخبار ، فما كان ممن الأخير إلا أن
شن الحرب برجاله ، وأمر ولديه طوس وكُستهم بالهروب

الى جبل راوه من جبال البرز ، علَّها ينجوان ومن آل
أفريدون يبقيان . وظلَّ يحارب افراسياب حتى آذنت شمس
دولته بالمغيب ، ونساء مُلكه بدان النحيب . ثم قسم جيشه
الى قلب وميسنة وميسرة . فتداخلت الأقسام وتلاطمت
كالأمواج . وقتل سابور رئيس القسم الأيسر من جيش
نوذر ، ولحق قارن بكروخان بن ويسه رئيس جيش
افراسياب لما علم بهجومه على نساء الايرانية سايباً إياهم ،
خذاً خزائهم وأموالهم ، وأخذ يتقاتل مع بارمان قاتل
أخيه حتى صرعه وعن فرقة خلعه . فتفرقت جموعه وأنهزم
أصحابه ومضى هو الى فارس .

لما سمع نوذر بخروج قارن مساعداً نساء الايرانية ، لحقه
طالباً النجاة من قبضة افراسياب . فلما علم هذا الأخير
بهروبه ، ركض وراءه طالباً دماءه ، فقبض عليه مع
ألف ومائتين من أعيان الايرانية ووجوه قوادهم المذكورين .
وأمر ويسه قائد جيشه بلحاق قارن الى فارس . فلحقه
وعلى الطريق نازله بعد أن كان قارن قد قتل ولده وجمعاً
عظيماً من جنود الترك . وتحارب الفريقان وزحف بعضها
الى بعض ، وجرت بينهما ملحمة عظيمة انتصر فيها قارن .
وأجبر ويسه على الفرار .

علم افراسياب بالخبر الفاشل ، فأمر شماساس وخزيران بالاتجاه نحو زاولستان ، فسارا ووصلا هيرمند عن طريق سجستان وكان «زال» قد رحل منها الى كورابذ لعزاء أبيه سام ، ولم يبقَ فيها غير مهراب . فاتصل بهما مذكراً إياهما أنه من نسل الضحّاك وأنه إن قبل بمصاهرة «زال» فحفاظاً على ملكه وأيام حكمه . فأمن جانبها ، ثم أرسل رسولاً إلى «زال» يدعو الاستعجال معلماً إياه بالحيلة التي اتبعها . ففرح هذا الأخير بعزم مهراب المثير ، وتوجه مع جيشه مباغتاً شماساس وخزيران ، ففطنا للحيلة واضطربا تدبيراً . ثم تلاقت الجيوش كالسيل الجارف ، ولحق «زال» بخزيران فضربه ضربة ، خرق منها صريعاً للدين وللقم ، مُعقراً في التراب ، مضرّجاً بالدماء . فلما رأى شماساس ما حلّ بصديقه ، هروا هارباً ، ومن المعركة جارياً . وفي طريق عودته الى افراسياب التقى قارن راجعاً من محاربة ويسه . فتحاربوا كالنور الكاسرة ، وتمكن شماساس من الهرب إلى افراسياب .

عرف افراسياب بالهزيمة النكراء وبقتل قواده الأعزاء ، فأمر بنوذر وقطع رأسه فخلت ممالك ايران عن صاحب العرش والتاج . وأمر أيضاً بالأعوان ، فأطلقوا ألسنتهم

بطلب الأمان وأراد أن يقتلهم فتشفع اغريث لهم ، طالباً البقاء على أرواحهم ، فأجيب طلبه وذهبوا معه الى سارى . أما افراسياب فرحل من دهستان متوجهاً إلى الري .

توجه ولدا نوذر الى «زال» ، شاكيين باكيين وعلى الثأر مُصرّين . وظلا وراء «زال» ، حتى هيا نفسه بجيش عظيم ، مقسماً على الانتصار ، مرجعاً ممالك ايران الى أصحابها الشرعيين . فلما بلغ الخبر الى الأمراء المأسورين عند اغريث ، اجتمعوا به طالبين فكّ أسرهم ، لأنه لو لم يفعل ذلك فإن زال سيفعله بدون شك ، تنفيذاً لما صمم عليه . لكن اغريث استمهلهم ، وعلى طريق الصواب دلّهم . فهو إن فعل ذلك ، فسيظهر على انه شقّ طاعة افراسياب ، وعن ملكه حاد . لذلك أخبرهم بأن دستان لو اقترب من سارى فسيذهب الى افراسياب ويتركهم فيها ليلتحقوا بجيش دستان . فلما علموا بذلك أرسلوا رسولاً الى «زال» يعلمونه بما قرر عليه اغريث . ففرح للخطة وأوكل كشواذ تنفيذ المهمة ، فاستولى على سارى وأخرج جميع الأسارى ، ورجعوا عائدين الى زاولستان .

أما افراسياب ، فلما علم بقدم اغريث وتركه المدينة ، استلّ سيفه وقتله ، وقام طالباً «زال» ، فالتقى بجيشه في

جوار الري . فتقاتلا وتطاحنا سحابة كل يوم مقدار اسبوعين، دون أن ينتصرا . ولما كان ولدا نوذر لا يصلحان لحكم الممالك الواسعة والأراضي الشاسعة، اختار «زال» زو بن طهماسب لما كان عليه من قدر وجلالة وشهامة وصرامة ، فتوَجَّحَ على ممالك ايران والفريقان ما زالا يتخاصمان . فحكم الرعية بالعدل والهيبة ، وكفَّ يد الظلم وساس بالحلم ، ووقع في عهده قحط عظيم ، فأنجبت السماء وماتت النباتات فقلَّ الطعام حتى صار يُقَابَلُ بالدرهم .

ضَعُفَ الفريقان وهما ما زالا يتطاحنان ، فسعى القادة للصلح ، علَّ قحطهم يزول ، وبأمر الله تعالى يسعون . فتهادنوا وتصالحوا وقسموا الأرض بينهم . فأخذ افراسياب من روزابد وشير إلى منتهى الصين والخُتُن ، ومن الجانب الآخر لزو وشعبه . وتعاهدوا ألا يقتربوا من بعض ، ولا يرجعوا للحرب . فزال القحط وأثمرت الأشجار وأخصبت المزارع وواعشوشبت المراتع .

شَغَرَ عرش ايران بعد موت زو ، فانتهاز افراسياب الفرصة ، وقرر معاودة الهجوم بأمر من أبيه بَشَنَك . فحضر جيشاً ترتج به الأرض ويتضايق دون كثرتة البر والبحر وعبر بهم جيحون . فلما بلغت أخباره «زال»، استدعى

ولده رُسْتَمَ وسلّمه محاربة افراسياب . فلما أراد أن يرتحل ومن عدوه ينتصر ، أمر بإحضار حصان له كالبحر المائج والفيل الهائج . ولما لم يجد بين خيول زابلستان خيلاً يستطيع أن يتحمل قوة كفه ، اختار فرساً شهباء من خيول كابل يُدعى رنخش . فسراً بذلك وخرج في الربيع لمنازلة افراسياب . فلما اقتربا من بعض ، بقيا على بُعد فرسخين لا يتقدمان ولا يتقاتلان . في هذه الأثناء أراد زال أن ينظم ممالك ايران بعد موت زو . فأشير عليه بانتقاء كيقباز من شجرة افريدون . فأمر ولده بالذهاب اليه ، مُنْبِئاً إياه بالخبر العظيم .

جَلَسَ كيقباز على عرش من عاج معتصباً بالتاج . وهياً جيشاً عظيماً لمحاربة افراسياب . فكان مهراب في أحد الجانبين ، وكزدّمهم في الجانب الآخر ، وقارن وكشواذ في القلب ، وهو مع «زال» في الخلف . وأخذ رسم يحور ويدور سائلاً والده عن وصف افراسياب لينازله لوحده . فلما رآه في الجمع واقفاً ، وثب عليه كاللث المصور يريد قتله . فاصطف الجيش من حوله وحواه منه . ثم اشتبك الجيشان وذهب من التورانيين جمع عظيم فهرب افراسياب إلى والده بَشَنَك ناصحاً إياه بوقف الحرب وطلب

السلم ، سائلاً العفو والصفح في قتل أخيه اغريبرث . فامتثل
الوالد لنصيحة ولده ، وأرسل رسولا إلى كيقباذ ، طالباً السلام ،
مُعلنًا وقف الحرب ، مقترحاً اتخاذ جيحون حاجزاً بين
المملكتين ، فما وراءه للثورانية ، كما كان في عهد ايرج ،
وما هو من جانبه الآخر للايرانية . فوافق كيقباذ ، وهدأ
من روع رُسَم الذي أراد مُتابعة القتال ، وجَعَلَه حاكماً
على ممالك زابلستان إلى بحر السند ، وكافأ جميع الملوك
بنفائس الخلع وطرائف التُحف . ولما قضى على حكمه
مدة ، رجع الأمن والأمان وانتشر العدل والاحسان ،
وعمَّ الرخاء كل شعبه . وكان له أربعة بنين ، كيكائوس
وكي آرِش وكي نشين وكي آرِشن . ولما بلغ مائة سنة ،
خطفته المنية تاركاً الحكم إلى أكبر أولاده كيكائوس .

جلَسَ كيكائوس مكان أبيه والناس في ظل حكمه
آمنين . وكان عهده من أشهر عهود ملوك الفرس ازدهاراً
وعدلاً ورخاءً . مرة ، دخل عليه مغنٍ من مملكة مازندان ،
وأخذ يتغنى بربيعها الدائم وحسن بناتها الخالم ، فأشرق
نفس الملك وأحب أن يمتلكها ويستولي عليها . ولما كانت
مملكة مازندان موطن الجن والسحرة الذين لا يرحمون
وبالملوك يفتكون . أطاعه أعوانه وقواده وفي نفوسهم ريبة

وخشية من هذه المغامرة ، لكنهم لم يفتحوه وأرسلوا في
طلب زال بن سام . فجاء ونصح الملك عن رغبته الممنوعة ،
لكنه لم يتصح ، وبدأت نواياه تتضح عندما سلّم الملك
إلى ميلاذ وتوجّه على رأس جيش عظيم إلى مازندان .
فلما وصل أمرَ قواده بقتل كل كائن حي يقف أمامهم .
فامثلوا لأوامره وقتلوا كثيراً .

وصلت أخبار القتل والذبح إلى ملك مازندان فاستنجد
بملك الجن سيذريو الذي لبي استنجاده وأعمى كيكائوس
وأغرقه مع جنوده في ظلام حالك وليل دائم ، وأمر
شياطينه بنهب أموالهم وخزائنها وإرسالها إلى ملك مملكة
مازندان .

ندم كيكائوس على فعلته الشنيعة ، وأرسل مستغيثاً في
طلب «زال» . فلبى هذا الأخير نداءه وأرسل إليه ولده
رستم على ظهر حصانه رخش ناصحاً إيساه اتباع الطريق
القصيرة الملائى بالشياطين والسباع والضباع لأنها أقصر من
غيرها . فنهض رستم يطوي عنان الصحراء وحيداً ، وعلى
الطريق تبدت له مخاطر عديدة كان يتغلب عليها بمساعدة
حصانه رخش ، فقتل السبع الهارب ، والثعبان الهائل ،
والساحرة الشمطاء ، حتى وصل أراضي الملك أولاد ، وأخذ

يرعى حصانه . فلما رآه هذا الأخير دنا منه يريد قتله ،
فقبض رستم عليه وقيده ، وعن مكان كيكائوس والشياطين
أراد دله ، وظلّ ممسكاً به حتى وصلا باب مملكة مازندان
المحروس بفلول الجن والشياطين . فنزل قتلاً وتذبيحاً حتى
قضى على أرزنك قائد ملك الجن ، ثم توجه الى مكان
كيكائوس الذي أرشده على مغارة سبيذريو ملك الجن .

قَطَعَ رستم سبعة جبال شواهن مرصودة ومحروسة
بالعفاريت ، فوصل بعد قطعها الى باب مغارة ملك الجن .
وعرف من اولاد المقيّد بأن الجن يتركون باب المغارة إذا
ارتفعت الشمس وازداد هبها . فاقتحم المغارة المسحورة ،
وفتك بالرقاب الممدودة حتى وصل الى قعرها حيث سرير
سبيذريو . فنازله وقاتله وعن سريريه أزاحه ، فشقّ بطنه
وأخذ كبده طائراً به الى كيكائوس الذي ما إن مسح نظره
بدمه حتى رُدَّتْ اليه نضارة الحياة . ثم نزل نهباً وقتلاً
وحرقاً في مملكة مازندان وقررا مكاتبة ملكها ليعلن طاعته
الى كيكائوس ، فأرسلا اليه فرهاد الذي طلب منه إعلان
طاعته وضم ملكه الى مملكة ايران ، ودَفَع الجزية
والخراج . لكنه رفض متسلحاً بالجن والسحرة والقبيلة التي
ليست لكيكائوس مثلها .

غَضِبَ كيكائوس من تهديدات ملك مازندان فنصحته
رستم بالتروي وأخذ الأمور بالهدوء الكلي ، وأرسل نفسه
رسولاً ثانياً ، مظهراً شجاعته أمام عسكر وجن ملك
مازندان ، لكن الملك عاود رفض الطلب مما أغضب رستم
فقفل راجعاً مهدداً منذراً بشن الحرب والاستيلاء على
مملكة مازندان .

اشتعلت الحرب بين الملكين ، ونازل رستم جوبان أحد
فرسان ملك مازندان فصرعه برمح دخل كتفه وخرج من
رقبته . واشتد القتال بعد موت جوبان فارتجت الأرض
من الجحافل وأضاءت السيوف ، الليالي الظوالم ، وُسْمِع
صليلها كأنه رعد مخيف أو زلزال عنيف . ومضى الأسبوع
الأول وهم ما زالوا يتحاربون وعن قوتهم لا يضعفون حتى
نزل رستم وأخذ رمحه وطعن ملك مازندان في خاصرته
طعنة رمته الى الأرض فحوّل نفسه الى صخرة صماء بعد
تلك الطعنة .

حمل رستم تلك الصخرة ، وعلى رجلي كيكائوس وضعها ،
وأمر ملك مازندان المختبيء في داخلها أن يخرج منها لثلاث
تفتتها المعاول وتقطعها قطعاً . فعمل بأمره وخرج مدججاً
بالسلاح . فقُبِض عليه وقُتِل .

أما كيكائوس فأمر بقتل المردة من الجن وذهب الى مكان العبادة مختلياً بربه شاكراً إياه على الفتح المبين والنصر العزيز . ولما انتهى بعد أسبوعين ، شارك رسم في المأكل والمشرب ووعدته بتسليم مملكة مازندان لأولاد الذي كان مفتاح هذه الفتوح كلها . ولما عاد إلى فارس ، فتح الخزان ، ووضع ديوان الأرزاق ورتب له كتاباً وعمالاً .

ووهب رسم بالإضافة إلى الحلى والجواهر والهدايا ممالك نيم روز أو زابلستان ، واستمر في حكمه في أمن واطمئنان إلى أن ظهر له ثائر من العرب يدعى دُرَيْس من نواحي الشام ومصر ، يدعي الحكم لنفسه ويخرج عن طاعته . فقام إليه قاصداً بلاد الترك والصين حتى وصل إلى نواحي البربر يريد احتلالها ، فصدّه ملكها والتحقا في حرب عظيمة كان النصر فيها حليف كيكائوس بعد مساعدة أحد قواده المسمّى جوذرز . فلما استولى عليها وأذعن أهلها لحكمه وطاعته ، قصد ضيافة رسم بن دستان في زابلستان . فنزل في ضيافته شهراً من الزمان قضاه باللهو والطرب والصيد والطرده . ثم ترك نيم روز راكباً البحر في جميع عساكره بقوارب تفوق العمد والحصر ، وسار طويلاً حتى وصل إلى مدينة تُدعى هاماوران وفي كل صوب منها عسكر

عظيم ، فمن يسارها مصر ، ومن يمينها البربر وقدامها البحر . فتقابلوا وتلاحموا حتى أيقن ملك هاماوران أنه لا سبيل لغلبة الإيرانيين فقبل الصلح وطلب الأمان .

وكان لملك هاماوران بنتاً ، تفوق الحسن والكمال وصفاً تُدعى سوزابة . فلما عرف كيكائوس بها ، أرسل رسولاً يخطبها وإلى داره ينسبها . فاستشارها والدها ، فقبلت بعد تردد إذ أن لا مفر من الرضوخ إلى أمر كيكائوس . فجهّزها والدها وأرسلها ، ثم بعث يسأل كيكائوس أن يتزل في ضيافته .

نصحت سوزابة زوجها بعدم الذهاب لثلا تصير المأدبة مندوبة . لكن كيكائوس ذهب وفي ضيافة عمه بقي رَدْحاً من الزمن . وفي ليلة هاجمه جنود البربر بمعاونة عمه ، فقبضوا عليه وسجنوه في قلعة حصينة .

عرفت سوزابة بمكيدة أبيها ، فلطمت وندبت ومع زوجها وُضِعَت بعد أن رفضت العودة إلى دار والدها . فخلا بذلك عرش إيران من السلطان ، فاحتله افراسياب بعد حرب مع العرب .

عَلِمَ رسم بما آل إليه أمر إيران ، فأرسل رسولاً

فبنوا له في الجبال بيوتاً ، سوّروها بالرخام ، وسمّروها بالفولاذ ، فلما تضايقوا ، في الأمر تشاوروا ، فبعث رئيسهم ابليس جنياً متنكراً بصورة غلام راوغ عقل الملك بصنع سرير من الذهب يطير به بواسطة العقبان . فلما طرُنَ وبالساء صرنَ ورائحة اللحم شمنَ ، هبطنَ بسرعة فتدحرجنَ . لكن كيكائوس لم يُصبَ بأذى ، فخجل من سوء فعلته واعتكف عن الناس حتى تاب الله تعالى عنه ورجع إلى سرير ملكه .

ولما كانت للأبطال شهوات . خرج رسم مع سبعة من قواده العظماء في حفلة صيد بأراضي توران ملك افراسياب ، فتنبه الأخير إلى وجودهم وخرج اليهم بعسكره قاصداً أسرهم لمضايقة كيكائوس . فما أن لاقوه حتى اشتبكوا معه بمعارك ضارية . ونازل الكوس من رجال افراسياب زواره شقيق رسم فضربه ضربة أنزلته عن فرسه على مرأى من أخيه ، الذي ما أن شاهد هذا المنظر حتى ثار له وطعن الكوس طعنة جندلته عن فرسه وأودت بحياته . ثم دارت الدائرة على ملك الترك فهرب راجعاً بفلول جيشه وجثث قتلاه .

إلى ملك هاماوران ، يحثه على إطلاق سبيل الملك والرجوع إلى طاعته لكنه رفض واتجه بجيوشه لمحاربة رسم . فأعدت هذا العدة ولجنوده استعدت . فلما تلاقيا والحرب نزلا ، ضعفت قوة ملك هاماوران ، فاتصل بملوك الممالك المجاورة (مصر والبربر) طالباً المساعدة للتخلص من أمر رسم . فجاؤوه بجيوش جرارة وأسلحة فتاكة ، لم يستطيعوا بها التغلب على رسم . فأسره واحداً واحداً وأجبر ملك هاماوران على طلب الأمان ، وإطلاق كيكائوس ومن كان معه .

كتب كيكائوس بعد الخروج إلى ملك الروم ، يسأله المعاونة في طرد افراسياب من ممالك ايران . فردّ الملك بالموافقة ، وتحت امرته ساق آلافاً من الجيوش . فلما علم افراسياب بأمر الهجوم ، تجبّر وتكبّر ومُلك إيران لنفسه استدعى ، فاشتبك الجيشان في قتال عظيم ، ومن جُند افراسياب قُتلَ خلقٌ كثير ، مما جعله يهرب إلى توران مقر مُلكه ومكان عزه . فعادت ممالك ايران إلى كيكائوس ، فشرع ينظّمها ولأمراءه يسلمها ، فوضع في كل من مدن خراسان الأربع : مرو ، نيسابور ، بلخ ، وهراة ، عسكرياً قوياً فزال الفتن وطابت الدنيا واستراح جميع الإنس ما عدا الجن الذين وضعوا في خدمة كيكائوس

خارقاً ، أخبرته والدته بحقيقة مولده ، فقرّر احتلال إيران وتنصيب نفسه ووالده ملكاً عليها ، فسار على سيرة والده في القوة والشجاعة واختار لنفسه فرساً من نسل رآخش . ثم ساق تحت إمرته الآلاف بعدما اتصل به افراسياب وحرّضه على الاستيلاء على إيران . فسار حتى وصل الى قلعة سيبد ، وهي معقل الإيرانيين . فنازل قائدها هجير وشقيقته التي خلصت منه بحيلة ، ثم استولى على القلعة .

عَلِمَ كيكائوس بالخطر القريب ، وفي أمر قائد زابل أرسل يستجيب . فلما وصل رسوله جيو الى رستم ، استمهله ؛ وعن قصده المسرع ردّه . فقام هناك عدة أيام وكيكائوس في قصره على نار . ثم رحلا معاً . فلما وصلا دخلا على كيكائوس ، الذي ما أن علم برجوعها ، حتى صبّ جام غضبه عليها ، وأمر برأس رستم عقاباً لتأخرهما . إلا أن أحداً لم يستطع أن يُنفذ أمره ، وأسرعوا كلهم خلف رستم يعتذرون عما بدر من كيكائوس . فرجع إلى حضرة كيكائوس الذي طلب الصفح والمغفرة ، وعن أمره وغضبه سأل معتذراً . ثم جلسوا للصباح في روض معطر بالرياح ، يشربون ويأكلون ، وبالرزق على عبيدهم وخدامهم يفيضون . ثم توجهوا بمائة ألف إلى جوار قلعة سيبد .

قصة رستم وسهراب وسياوخش

وسهراب هذا ولد رستم من ابنة ملك سمنجان التركي ، الذي ما ان علم بمجيء رستم بن دستان الى مملكته بحثاً عن فرسه الذي ضاع . منه في رحلة صيد ، حتى أنزله في ضيافته ، طالباً منه مبيت ليلته . فلما شرب وانتشى ، وبسكرات النوم سها . استيقظ في الليل على صورة بنت تفوق الجمال وصفاء والكمال سحراً ، وعرضت نفسها عليه بعد أن أحبته من الأحاديث التي كانت تسمعها عنه . فقضى ليلته معها . فلما أصبحت ، أعطاها خريزة طالباً منها إن كان مولوده أنثى فالخريزة تربطها على قرونها ، وإن كان ذكراً فعلى عضده ، ثم رجع الى إيران بعدما استردّ فرسه . وُلِدَ سهراب على صورة رستم بن دستان أو سام بن نریمان فلما بلغ سنّه الثالثة ، وعن غيره من الحلائق شبّ

فلما أمسوا، خيموا هناك، وتسلسل رسم إلى معسكر الأتراك ،
قاصداً رؤية سهراب . فالتقى بأحد رجاله زند الذي ما أن
وكزه بيده وكزة حتى مسات للحال . ثم استعد الجيشان
لبداء القتال ، وأخذ سهراب يسأل أسيره هجير عن أصحاب
السرادق الإيرانية ، لعله بسرداق رسم . فأجابه هجير
عن كل سؤال ، وعن أحوال رسم صدّ الكلام . فاغتاظ
لعدم المعرفة ، ولسرادق كيكائوس خرج مهتماً .

فاستنجد الأخير برسم الذي جاء مسرعاً وللأمر مُدبراً ،
وحضّر نفسه لملاقاة سهراب . فتلاقيا وللمنازلة استعدا ،
وظلا يحطمان سلاحها غير مدركين بأن الوالد ينزل ولده ،
والقلب يمزق أغشيته ، والعين تطفىء نورها . فلما تعبنا ،
ولم يفز أحدهما ، رجعا إلى مخيمها واستراحا . ثم رجعا في
اليوم التالي يكملان ما قطعاه بالأمس . فلما تقابلا ، تناوشا
وتناطحا ، وصرع سهراب رسم وأراد ذبحه ، لكن الأخير
استمهله قائلاً : « ليس من شيم الأبطال عندنا أن تقتل
عدوك الذي بمنزلتك في أول نصر لك ، لكن يُسمّى بطلاً
من نازل عدوه ثانية وانتصر عليه ، آنذاك تكون حياته
ملكك ويحق لك قتله وذبحه » .

اغترّ سهراب بكلام رسم فتركه يذهب مُحضراً نفسه

للمنازلة الثانية . فلما تنازلا ، صرع رسم سهراب واستلّ
خنجره ونحر ولده دون أن يدري . ولما رأى خرزته معلقة
على عضده ، أدرك انه ولده ، فلطم نادباً وبكى ناحباً .
وظلّ على ذلك مدة من الزمن . وتساخر عن العودة إلى
جموع الإيرانيين الذين شدوا الرحال للاستفسار عن الأحوال ،
فشاهدوا ما صار ، ولأمر بطلهم نزلوا للاستفسار . فساعده
وواسوه وعن أمر سره استفسروه . فطلب من أخيه زواره
أن يقصد هومان قائد عسكر الترك ، ويصحبه إلى بلاده
كي لا يتعرض هو وعساكره لأي أذى ، وأرسل جوذرذ
إلى الملك كيكائوس ، يسأله شربة من الدواء الذي يجلب
الشفاء لأن ابنه سهراب لم يمت بعد . لكن كيكائوس
رفض ، فقام إليه رسم بنفسه . لكن ولده مات وهو على
الطريق . فتوجه مع أخيه زواره إلى حضرة أبيه دستان في
زابلستان الذي تلقاه مع أهل سجستان . فأقام باكباً وعن
فعلته نادماً ، عالماً أن الدموع لن تُرجع عليه ولده .

وفي الناحية الأخرى من المدينة ، كانت هناك أم تلطم
خدها ، وتنعي حظها ، وعن ذكر ولدها سهراب لا تنقطع
أبدأ . وبقيت على ذلك الحال سنة حتى أتتها المنية وطواها
الثرى ، وهذا قضاء الله في خلقه ولا مردّ أبداً عن أمره

قصة سیاوخش

وُلِدَ سیاوخش من جارية حسناء من نسل افریدون ، كانت هاربة من ظلم أبيها عندما لاقاها طوس بن نوذر وجيو بن جوذرذ وهما يتصيدان بناحية من نواحي توران ، فتنازعا عليها ، واحتكما إلى كیکاوس ، الذي ما أن رآها حتى استأثر بها وإلى حريمه ضمها . فحملت منه ووضعت ولداً كأنه قمر أو صنم حسناً وجالاً ، فسُرَّ به كیکاوس ، وأرسله مع رسم لكي يرثيه ويعلمه آداب الملوك . فلما شبَّ وكالملوك تبدى ، رحل إلى والده ، فاستقبله بالمواكب نائراً عليه زهر الكواكب ، وأقعده بجانبه على العرش ، واهباً إياه كل ما لديه من مال وجواهر وكنوز وذخائر . ثم أعطاه التاج في السنة الثامنة من قدومه .

في يوم من الأيام رآته سودابة زوجة والده . فهامت في حبه لما هو عليه من حسن الجمال والكمال . فلما أرادتة ومن حبهما أظهرته . دخلت على الملك تطلب منه السماح لسياوخش بزيارة أخواته وراء الستر ، لأنهن سمعن عنه دون أن يكحلن عيونهن برؤيته ، فترل على طلبها ، واستدعى سیاوخش طالباً منه زيارة أخواته ، وسودابة

التي هي مثل أمه . لكنه فطن للحيلة وعرف أنها من تدبير سودابة ، فتظاهر أن زيارة النساء في غرفهن ليست من آداب وسيرة الملوك . فسُرَّ والده بذلك وأمره بأن يزور أخواته ولو لمرة .

في صباح اليوم التالي زار سیاوخش أخواته وسودابة التي هي مثل أمه . ففرحن وانبسطن ، ومن حسنه ونبله اكتحلن . وأشارت سودابة على والده بتزويجه إحدى بناتها لكي تضمن قربه ، وتزيد حبه . لكن سیاوخش رفض ، ومن بنات عمه أراد النسب . ثم استدعته سودابة مرة ثانية ، وعرضت عليه بناتها بعد أن بثت له وجدها وعرضت عليه حبهما . فاختار واحدة لتفادي الأمر ، وأفهم سودابة بأنها له مثل الأم ، وحرام عليه أن يقابل وفاءً أبيه بطعنة من الخلف . لكنها لم تقنع وبدأت تلجأ للحيلة . فلما كان عندها مرة ، عرضت عليه نفسها ، فصدَّ عنها ، فزقت ثوبها وصرخت صراخاً عظيماً سمعه الملك كیکاوس ، فدخل عليها وصرف خدمها ليرى ما في الأمر . فقالت له سودابة : « هذا ولدك ، حاول اقترابي . فلما صددته لم ينصرف ، وباسمك لم يرتدع . فزق ثوبي ، فصرخت خائفة على الوليد الذي في بطني » . أما سیاوخش فقصَّ

عليه القصة كما جرت . فأخذ يده يشمها ، محاولاً أن يجد أثراً لرائحة سودابة عليها . فلما لم يجد ، عرف أنها المخادعة . لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً بها لأنها ابنة ملك هاماوران ، وأم أولاده وخادمة أيامه خصوصاً تلك التي قضاها في قلعة والدها حين كان سجيناً .

التجأت سودابة للحيلة مرة ثانية . فدعت ساحرة عندها كانت حاملاً ، وطلبت منها أن تُسقط الحمل الذي في بطنها . ففعلت ذلك في طست من ذهب ومن ثم اختفت . أما سودابة فبدأت تصرخ وتستغيث حتى جاء الملك والقوم وأظهرت لهم صحة أقوالها . فاحترار الملك بالأمر ، واستدعى العلماء والوزراء ، فكشفوا له بعد مضي أسبوع أن الحمل الذي في الطست ليس من ظهره ولا من رحم زوجته ، بل هو لساحرة اختفت ولم تعد للظهور . وحتى يتيقن من الأمر أشاروا عليه بنار عظيمة ، إن خاضها أحد الحصين وهو بريء لم تحرقه . فحضروا الأخشاب حتى صارت على شكل جبلين عظيمين وأوقدوا فيها النار . وهباً سیاوخش نفسه للدخول فيها وسودابة على النافذة فرحة بما سيصيبه . فلما دخل بفرسه وخرج سالماً . هل الجميع فرحين وبأمر سودابة أرادوا قاتلين . لكن سیاوخش تشفع لها عند الملك فأبقى عليها وازداد حباً لها .

ثم إنه بلغ كيكائوس أمر تأهب افراسياب للاستيلاء على إيران . فجمع قواده ووزرائه ، وأوكل أمر جيشه الى رستم وسياوخش الذي عرض نفسه تخلصاً من حيل سودابة ، طامعاً بالصيت الذي سيكسبه من مقتل افراسياب ، فذهب قاصداً ضيافة دستان في زابلستان ، فأقام عنده شهراً ، ثم أكمل طريقه متابعاً ، مجمّعا جيوشه من كل مدينة كان يمر بها حتى وصل بلخ ، فباغت جيوش الترك بغتة قضت على معظمهم . وأرسل الى والده رسولاً يستأذنه في عبور جيحون ، فكان له ما أراد . أما افراسياب الذي لحقته الهزيمة ، فقد حلم حلماً مزعجاً بعد تبليغ خبر انهزام جيشه . فلقد رأى نفسه في خيمة تحرسها مئات الجنود . وفجأة هبت ريح عاصفة اقتلعت الخيمة والحاشية ، فأصبح وحيداً بين جموع الإيرانيين الضخمة الذين ظهروا له ، وفي يد ورمح كل واحد منهم رأس جندي مقتول من جنوده . ومن ثم مسكوه ، وكبلوه ولكيكائوس قاده ، حيث أمر بقتله واستولى على سرير ملكه . فارتعد مرتجفاً ، وفي طلب المنجمين أرسل مسرعاً . ففسروا حلمه بأن قتل سیاوخش وعدم قتله سيجر الولايات على مملكة توران . فسعى لدى سماعه هذا الخبر الى الصالح وأرسل أخاه كرسبوز رسولاً الى سیاوخش .

وصل كرسيز ، وأفضى بما معه لسياوخش الذي استمهله للتشاور . فاجتمع برستم ، ورأيا إثباتاً لكلام افراسياب الطلب منه إرسال مائة رهينة ، والتخلي عن بعض أراضي توران لمملكة إيران . فأجبر الأخير على تنفيذ الرغبات وإرسال الطابات . لأنه لو لم يفعل فسَيُظن به السوء ويلحقه المكروه . أما سياوخش فأرسل رستم رسولاً الى كيكائوس مُشيراً عليه وقف الحرب . فما أن عرف الملك بذلك ، حتى ثار وتوعد وفي وجه رستم هدد . واتهمه بأنه حرّض ولده على وقف الحرب وقبول صلح افراسياب لما في نفسه من رفاهية وحب للمهادنة . وأمره بالبقاء عنده وأرسل طوس لقيادة جنده . فلما وصل الى حضرة سياوخش ، علم الأخير بغضب أبيه وبتصميمه على محاربة افراسياب . فاهتمّ واغتمّ ، ولتقض وعد افراسياب لم يكن مصمماً . فاختر من قواده زنكة بن شاوران رسولاً الى افراسياب يعلمه فيه تصميم أبيه على محاربتة ، مُرجعاً له الرهائن ، سائلاً إياه السماح له بعبور بلاده ليسكن طرفاً من الأرض ، معتزلاً التاج والعرش ، متخلصاً من كيكائوس ، مُستريحاً من سوء خلقه وفساد طبعه . فرحّب الأخير بقدمه ، وبالغ في إظهار مودته ورغبته في تزويجه إحدى بناته . فيصير إليه عرش إيران بعد وفاة كيكائوس ، وسياوخش عنده

بن يديه . فيصبح ملك الجانبين وصاحب الدولتين .

عبرَ سياوخش نهر جيحون وهو حزين القلب . فترك ممالك إيران واتّجه الى بلاد توران . فلما وصل استقبله بيران قائد جيش توران ، فرحّب به أعظم ترحيب ، ونزل على كل طلباته مجيب . فاستأمنه سياوخش وسأله قائلاً : « هل يمكنني أن أثق بأفراسياب وأقيم عنده ، أو ألتجأ الى حصن آخر خوفاً منه ؟ » فاستوثقه بيران مؤكداً أن نفس افراسياب تعمل بغير ما تضر ، وأن كل شيء في توران تحت إمرة بيران . وبعد مدة ، صارا كالصديقين ، بل صار بيران والداً وهو والداً . ثم ارتحلا الى افراسياب الذي ما ان رآه حتى بُهتَ لجماله وحسن كماله ، وأنزله في نفسه أحسن منزلة ، وخلع عليه الهدايا والجواهر ، ونفائس الكنوز والذخائر . ومضت سنة على هذه الحال ، وافراسياب لا يرى ولا يفكر إلا بسياوخش فهام حياً به وأنزله منزلة ولده ووافق على تزويجه فري كيس بطلب من بيران ، بعد أن زوّجه هذا الأخير ابنته الكبرى جريرة .

تمّ زواج فري كيس من سياوخش . فاجتمع الشمس بالقمر على حد قول زوجة بيران كل شهر التي حملت للعروس من خزائن دورها وقصور عزاها ، أغلى اليواقيت والجواهر

محملة على أطباق من الزبرجد والذهب ، مضمخة بالمسك والعود الرطب . وانتقل سیاوخش مع زوجته وصحبه الى ختن مملكة بيران فأقاموا عنده أياماً ، انتقل بعدها الى موضع آخر بنى فيه مدينة دعاها بسياوخش كرد ، فكانت كالروضات منظرأ وكالقصور بُنياناً وعزراً .

طلبَ افراسياب من أخيه كرسیوز زيارة سیاوخش للاطلاع على أحواله وأفعاله في مدينته الجديدة . فارتحل ، ولما وصل ، استقبلَ بالدرر المنثورة ، وأنزلَ مع حاشيته في القصور المبهورة . وأجلسه سیاوخش قرب عرشه ، مبسوطین فرحين وبالشراب آمرين . لكن فرح كرسیوز كان في الظاهر ، أما في الباطن فقد دخل قلبه الحسد والحالة نفسه اكتأب . وقرر أن يوغر صدر الملك افراسياب على سیاوخش خصوصاً بعدما نازل هذا الأخير رجلين من أشجع رجال كرسیوز فغلبها . فلما عاد الى افراسياب تفوهه بالأباطيل وقال الأكاذيب عن سیاوخش واتصاه سراً بأبيه كیکاوس ، وتحضيره آلاف الجيوش لخلع افراسياب عن عرش توران . فدُعِرَ مما سمع ، وبعث كرسیوز ثانية الى سیاوخش طالباً منه المجيء ، وفي ملك حضرته مُقيمة وصل كرسیوز الى سیاوخش مغتماً ومهموماً . فلما سأله

عن أحواله أجاب : « يا مولاي ، ما لي أراني إلا نذير شؤم لك . فالملك افراسياب قد غيّر رأيه في حقك ، وهو يريدك أن تحضر اليه . لكني أنصحك وعن السوء أبعذك ، فاكتب اليه كتاباً تعتذر فيه عن سبب تأخرك بالرحيل ، علّني أهدئه ، وعن رأيه أغيّره ، بينما تكون قد خرجت الى مكان تكون فيه بمأمن على نفسك وروحك » . ثم أخذ بنفسه الرسالة وطار مسرعاً الى افراسياب ، فوصل بثلاثة أيام . فلما دخل الى حضرة أخيه ، سأله عن عجلته وسبب رحلته ، فأجابه مشوّهاً الحقائق ، مُحرضاً إياه على سیاوخش الذي تفاقم شره واستفحل أمره . فما كان من افراسياب إلا أن حضر جيشه وبأمر سیاوخش وجهه . فلما علم بقدمه ، ودّع زوجته فري كيس طالباً منها الحفاظ على ولدها الذي في بطنها ، وخرج . وبينما هو خارج مع حرسه ، لاقاه افراسياب بجنده . فاقتلا قتالاً عظيماً وقُبض على سیاوخش الذي كُبل وسيق إلى حضرة افراسياب . فلما مثّل بين يديه ، تردد في رأيه بين مستعجل في قتاه ، ومستمهل في سجنه ، وبتحريض من كرسیوز وقواده سلّمه إلى كروزره الذي أخذه إلى جانب في الصحراء وذمحه بخنجر كرسیوز الذي قدمه اليه في طست

من ذهب . فنبت مكان الدم نبات معروف بخون سیاوشان
أو بدم الأخوين .

عامت فري كيس بمقتل زوجها فلطمت خدها وفتفت
شعرها ولعنت أباه الذي ربّأها . فما أن سمع صراخها حتى
أمر بها طالباً قتلها ، وإسقاط الوليد الذي في بطنها . لكن
توسلات بيران الذي قدّم بطلب من أخيه بيسلم شفعت
لها . فأخذها وفي قصره وضعها طالباً من زوجته أن تنزل
في خدمتها كأنها ابنة لها .

٧

الثار

ولدت فري كيس صبيّاً أسمته كيخسرو كما طلب
سياوخش قبل مقتله . فكان كوالده رسماً وكشكله قدماً .
وفرح بيران به وخاف عليه من افراسياب ، الذي ما ان
علم بمولده حتى أمر بيران بأخذه إلى الجبال ، ووضعوه
هناك ليكون بعيداً عن كل حقد وثأر لأبيه سياوخش .
فأخذه وعند الرعاة وضعه . فلما شبّ . وتصيد من الغزلان
والأسود كثيراً ، أخذه بيران وربّاه . فلما أراد افراسياب ،
أخذه له بعدما نبّهه بتفريغ عقله ، وعكس . كل سؤال
يسأله . فلما سأله افراسياب عن الليل والنهار ، أجابه عن
الأنهار . وعن أمه وأبيه ، أجابه عن معلميه ، فرضي
عنه ولبيران منحه . فأرسله هذا الأخير مع والدته فري كيس

ABDEEN

والآلاف من الهدايا والأسلحة والملابس إلى مدينة والده
سياوخش كرد .

في الناحية الأخرى من الأرض ، كانت الجموع تبكي
وتنوح . وكيكاوس يهدأ ويشور بعدما علم بمقتل ابنه .
فطالب بأخذ الثأر ، ولاقاه رستم لنفس الأمر ، فجاء
ناحياً وعلى شباب سياوخش أسفاً . ودخل على الملك مؤنباً ،
وعلى زوجته مُحَرَّضاً . فهجم كيكاوس على غرفتها وشدها
من شعرها وقتلها بسيفه . وتوجه بعسكر عظيم لم يكن
للك الإيرانيين مثله في القديم ، مصمماً على دك معقل
توران وقتل افراسياب . فوصل إلى اسفنجاب ، ونازل
فرامرز بن افراسياب ملك تلك المنطقة . فقتله ، ونهب
ملكه وأحرقه .

تناقلت الأخبار بطش رستم وقواده ، فلاقاهم افراسياب
مع ولده سرجه الذي أُسِرَ وذُبح حسب ما فعلوه
بسياوخش ، حذو السن بالسن والعين بالعين . ثم تلاقى
الجيش والتحمت التحاماً عظيماً . فتبارز الفرسان وتناهض
القواد ، واخترقوا بعضهم بعضاً . فتجدلت الجثث وطارت
الرُكَب . وجرح رستم افراسياب الذي هرب دون أن
يعلم أحدٌ بهروبه .

فدخل رستم ممالك توران ، ونزل فتكاً وذبحاً ، وهدماً
وردماً ، وقتلاً وسيياً . فأصبحت دورها على التراب والرياح
تدروها كالرماد ، وذلك في أعظم ثأر وانتقام لم تعرفه
ممالك توران . ثم قفل راجعاً إلى ممالك إيران فبقي في
نيم روز عند والده دستان ، وأرسل قواده إلى كيكاوس
لمساندته إذا احتاج الأمر .

وكان عند الملك كيكاوس قائدٌ يُدعى جوذر بن
كشواذ . رأى رؤيا تأمره بأن يرسل ولده جيو للبحث عن
كيخسرو في ممالك توران ، والعودة به لاستلام حكم إيران .
فَنَفَّذَ ما أُمِرَ به وأرسل ولده جيو بصحبة فرسه ووهقه .
فدخل ممالك توران ، وأخذ يسأل ويستفسر عن كِيخسرو .
وكان يقتل كل شخص يسأله عن الملك الصغير ، لثلا
يُداع أمره ، وينتشر سره . وظلَّ يبحث ويبحث مدققاً ،
مشككاً في أمره حتى مضت سبع سنوات .

وبينا كان ذات يوم يستريح ، ويرعى فرسه في مرج
أخضر ، جاءه شخص كالقمر الطالع والسرو الباسق .
فعرف انه كِيخسرو ، فأقبل عليه مُقبلاً وعن حاله
سائلاً . فأيقن أنه الملك الشارد كالغزال الوارد . وعرف
كيخسرو انه جيو بن جوذر الذي حدثته عنه والدته

فتعانقا وتصادقا ودخلا سیاوخش كرد لإخبار فري كيس
التي ما ان رأت جيو حتى علمت بمقصده وقوة شجاعته .

هرب الثلاثة تحت جناح الظلام قاصدين ممالك إيران .
لكن خبر الهروب انتشر ، ولأذن بيران وصل . فأرسل
شرذمة صغيرة من قواده وعساكره وراء الهاربين . فلما لم
تستطع قتلهم ، قام هو بنفسه سائراً في اثرهم مع عدد
كبير من جنده وعسكره .. فالتقوا في واد عميق ، كثير
المياه ، واستطاع جيو بحيلة أن يجلبه لوحده للضفة الأخرى
من الوادي . فنازله واستطاع أن يكبله ، ويلبس ثيابه وسيفه
ورمحه . ورجع الى جنوده فاتكأ بهم ، قاتلاً منهم خلقاً
كثيراً . ثم رجع الى بيران وأراد أن يقتله لكن فري كيس
تشفعت له وفاءً لعمله . وظلوا هاربين كاللصوص شاردين
حتى وصلوا ضفة نهر جيحون وأرادوا أن يقطعوه ، فمنعهم
صاحب السفن طالباً واحداً بأربع . فإما الدرع ، وإما
الفرس ، وإما كيخسرو ، وإما فري كيس . لكن جيو
رفض وقال لكيخسرو : « إن كنت ابن سیاوخش حقاً ،
فخُضْ هذا الماء كما فعل افريدون من قبلك » . فنزل
عن حصانه وسجد لله تعالى ، وقطع الموج المتلاطم إلى
الجانب الآخر ، فسلم من افراسياب الذي صار وراءه بجيش

عظيم العدد والعدة ، وأراد أن يقطعه . فنهاه هومان أحد
قواده ، فظلّ مكانه وبينه وبين ملك إيران وتوران (أي
كيخسرو) موج متلاطم وثار متفاقم .

وَصَلَ كيخسرو إلى خراسان من ممالك إيران . فأقيمت
الزيينات والحفلات ، ونُشِرت الجواهر والمزاهر . وظلّ
فيها أسبوعاً في قصر جوذرز . ثم انتقل مع صحبه إلى
اصطخر لرؤية كيكاوس . فلما وصل ، تهافت الملوك والأمراء
لتقديم ولاء الطاعة ، مرحبين مهالين ، وَاكْمَلِكِ إيران
وتوران داعين . لكن طوس بن نوذر تخلف عن الحضور ،
وتهادن في استعجال الأمور ، محتجاً بعدم تسليم الملك إلى
كيخسرو من نسل افراسياب وشجرة بشنج ، ما دام هناك
فري برز بن كيكاوس أحقّ بالسلطنة وإدارة المملكة .
فغضب جوذرز من كلامه ونهض اليه مع أولاده السبع
والثمانين باثني عشر ألفاً من الجنود . فلما التقيا وللمنازلة
استعدّا ، استدعاهما الملك كيكاوس طالباً منها بثّ ما في
قلبيها . فلما أدرك انهما يتنازعان على مَنْ سيكون ملكاً
من بعده ، أمرهما بالتوجه إلى قلعة بهمن في أرض
أذربيجان ، وتخليصها من أيدي الإنس والجان . والذي
ينجح ، يوليّ ملكه رأس المملكة وتاج السلطنة . وهكذا

كان . فلم يفلح طوس في محاصرة بهمن لأن أسلحته صارت كالحديد المذاب من شدة اللهب الذي صادفه على الباب . اما كيخسرو فهدّد أهل القلعة وتوعد . وربط تهديده على رأس رمح وضعه جيو في حائط القلعة على اسم الله تعالى . فهبطت القلعة وطارت الجن والعماريت كالجراد محدثةً وراءها لهيباً أسود وغباراً أمرّ . ثم رجع إلى كيكائوس وتسلم العرش والتاج ، وصفح عن طوس وأدخله في خدمته .

جلس كيخسرو على عرش ممالك إيران . وبسط العدل والإنصاف والرحمة والإحسان . وزار كل الممالك ، بانياً الأراضي المهذمة ، رافعاً لواء السلطنة . حتى استراحت البلاد في عهده وفي ظلّ ملكه . واجتمع بعد مدة من حكمه مع كل ملوك إيران ، من رسم ودستان إلى طوس وجودرز وشاكس وزنكه بن شاوران قائد عساكر بغداد . فعاهدوه على الوفاء والانتقام لسياوخش بن إيران من افراسياب ملك توران . ثم سلّم قيادة جيشه إلى طوس بن نوذر وفاءً للعهد ، طالباً منه الثأر ، وأمره بعدم سلوك طريق قلعة كلاب لئلا يعتقد صاحبها ، وهو أخوه من جريرة بنت بيران أنهم في قصده . فلما ارتحل وللمكان وصل ، فضّل أن يأخذ الطريق المذكورة لكثرة مياهها وعمرانها .

فلما عرف صاحب القلعة فروذ بقدمهم ، نصحته والدته بالانضمام اليهم ومعاونة مقصدهم في الثأر لوالده من افراسياب . فذهب مع نخوار أحد فرسان قلعته ، ووقفوا على قمة جبل عال ، يرقبان طوس ورجاله . فما أن رأها حتى انتدب بهرام بن جودرز لرؤية أحوالها ومعرفة نواياها . فلما صعد اليها ، وحقق في أمرهما واستبان مقاصدهما ، خرّ ساجداً لابن سياوخش وشقيق ملكه كيخسرو من الأب الواحد . وعاهده على إبلاغ أمره إلى قائده . لكن طوس لم يرضَ بالأمر الواقع ، واستعاض عنه بالحكم القاطع . وبعث ريو أشجع فرسانه ليأتيه برأس ذلك التركي . فصعد إليه . فلما رآه فروذ ، وكان قد تواعد مع بهرام على المجيء إذا وافق طوس ، أخذ رمحه وفي القلب أصابه فمات ريو ، ومن بعده زرسب الذي كان صاعداً لنفس الغاية . ثم رمى فروذ نشابه على طوس وجيو فأصاب فرسيهما . فثار بيثرن ابن جيو على ما أصاب والده . فصعد كالسهم الخارق والرعد البارق . واستطاع أن يردع فروذ إلى القلعة ، ثم رجع إلى معسكر جيشه . فلما أصبحوا ، على القلعة هجموا . وظلوا يتقاتلون حتى بقي فروذ وحده . فضربه رهام ضربة أطارت يده . فرجع إلى القلعة ، ومات متأثراً بجراحه . أما والدته جريرة فأحرقت جميع الذخائر والأسلحة وأخذت

خنجرًا طعنته في صدرها وماتت إلى جانب ولدها .

دخل طوس القلعة نادماً ، وعلى سوء فعلته شامئاً .
وحنطوا فروذ ودفنوه في ناووس على رأس الجبل الذي
كان عليه . وتابع طوس طريقه إلى تركستان فوصل كاسرود
(وادي كاس) وقتل بلاشان الخارج من عند افراسياب
ليتعرف على أحوال العسكر ويقف على عددهم وعدتهم .

جاء الشتاء بعواصفه وثلوجه وطوس في مكانه . فسُدَّت
عليه المنافذ والمخارج ومات من جنوده العدد الكبير . فغيَّر
دربه وعدل خطته . وكان افراسياب قد وضع جبلاً من الحطب
في الطريق التي ساروا عليها . فلما وصلوا ، أمر طوس جيور
بإحراقها . وظلوا ثلاثة أسابيع حتى خمدت نارها وانطفأ
لهبها . فقطعوها إلى جيوكرد ، والتقوا بثراو أحد حماة
أراضي افراسياب . فنازلوه وقتلوه وعن أرضه أزاحوه ،
فهرب إلى ملك التورانيين منبثاً بقدم جحافل الإيرانيين
فأمر بيران بالتأهب والاستعداد .

رحل بيران وقطع ، وبالجواسيس وأصحاب الأخبار
اجتمع . فأخبروه أن الإيرانيين في غفلة من أمرهم من
كثرة شربهم وسكرهم . فهجم عليهم هجمة حسبوا لها أن
الصباح قد أبكر في طلوعه ، فقاوموه وحاربوه ومن مكانه

لم يزحزحوه . وهرب الذي هرب واحتموا في منح الجبل
متفقدين أحوالهم ، منقذين موتاهم . فلما اجتمع من بقي ،
أرسلوا رسولا إلى كيخسرو يعلمونه بالأنباء المفجعة والكسبات
المبغته . فلما وصل إلى حضرته وكان بعد لم يفق من صدمة
وفاة أخيه . ثارت نائرتة على طوس لطيشان عقلاه ونقص
منطقه . وكتب رسالة إلى عمه فري برز يسأله زمام العسكر
والدرفش (اللواء) الميمون ، ناصحاً إياه بمشاورة جيوبن
جوذرز في كل شاردة وواردة .

استلم فري برز ما أمره به ابن أخيه . وأخذ يرتب
الجيش مسلماً فرقه إلى القواد الذين بقوا . وهادن بيران
مدة من الزمان . فلما انتهت المدة ، وكان فري برز قد
استعد . دارت الدائرة مرة أخرى على الإيرانيين . فاستبسل
جيو وأولاده وأحفاده خصوصاً بعد هرب فري برز بالدرفش
المنصور . فأمر جيو حفيده بيثرن باسترجاعه . فلما لم يقبل
فري برز استل سيفه وشره إلى شطرين . ثم رجع إلى
وطيس المعركة بنصفه مفدياً دمه ليبقى مرفرفاً . خسر
الإيرانيون الجولة الثانية من المعركة . وفقد منهم من
العدد والعدة أرقام لا يمكن حصرها ولا عدها . فقفلوا
راجعين إلى كيخسرو تاركين وراءهم خياماً مضروبة وخزائن

مُتروكة ، هجم عليها بيران فأتى على معظمها وفرّقها على جنده وعسكره .

غضب كيخسرو والتهب ، وصبّ جام ثورته على طوس وفري برز ومنعها مع قوادها من الدخول الى حضرته . ولم يزل على قسمه حتى تشفع لها رستم بطلب منها . فعاد طوس ودخل عليه وعرض مقاتلة افراسياب من جديد فوافق كيخسرو بعدما استشار رستم .

سار طوس بجيش عظيم ، فقطع الصحراء ووصل الى وادي الشهد . وتراسل مع بيران محرضاً إياه على ترك توران والاتجاه نحو إيران . فما كان من هذا الأخير إلا أن استنجد بأفراسياب وبساحر عنده يُدعى بازو ، الذي صعد الى جبل يطل على الوادي . فأرسل عواصفه الثلجية ورياحه الشتائية . فتسمرت أيدي جنود إيران على أسلحتها ، ونزل الترك بهم قتلاً وبطشاً . فسالت الدماء كالأنهار ، وغطت الأودية حتى صارت كالبحار . لكن رهام أحد قواد طوس رأى بازو في أعلى الجبل . فصعد اليه وقتله وأزال سحره فرجع الطقس الى ما كان . ثم تحصن جنود إيران بجبل يُدعى هماون وأرسلوا الى كيخسرو يطلبون رستم . فساعدهم وعلى طلبهم أجابهم . وأرسل رستم

على رأس جيش عظيم ولّى قيادته لفري برز الذي كان قد تزوج أمه فري كيس ، فرضي عنه . فلما وصل رستم بإمداداته ، ونزل في الجبل على إخوانه . هملوا فرحين ولاستقبال القادم انتشروا مُخبرين . هذا يحدثه عن قلقه ووجمه ، وذلك يخبره عن جند توران وكثرة عددهم بقيادة بيران . فأخذ يرتب جيشه ، وينظّم صفوفه جاعلاً جوذر على اليمين ، وفري برز على اليسرة ، وطوس بالقلب . وانتظروا يتحضرون للهجوم .

في الناحية الأخرى من الجبل كان بيران قد استعدّ بأعداد عِدّة ، يسانده في ذلك الجيش العظيم ، خاقان الصين ، وكاموس الكشاني بطل أبطال بلاد ما وراء النهر ، الذي ضُربت به الأمثال بالشجاعة والقوة، والجرأة والمروءة ، اللذان لما وصلا ، وبضيافة بيران نزلا ، أخذوا يتشاورون وللحرب يعدّون . فوضع الخاقان نفسه في القلب وكاموس على اليمين ، وبيران على اليسرة . فهذا المعسكر يخاف من عدد الإيرانيين ومن سمعة رستم . وذلك المعسكر يخاف من كثرة عددهم المجموعة من بلاد الصين وسقلاّب والهند .

دُقّت الطبول لبدء الهجوم من كلا الجانبين . فاشتبك

الجيشان في قتال عظيم ، وَاخْرَقَتِ الصَّفُوفُ . وتقدم من جموع التورانيين فارس يُدعى اسكيوس طالباً المبارزة . فنزل اليه رستم بعد رهام بن جوذر . فرماه بنشابين أصابا فرسه وصدرة فقتل ومات .

ولما صاروا في اليوم الثاني ، تصايحوا للقتال ، وتقدم كاموس الكشاني طالباً الذي قتل اسكيوس غير عالم انه رستم . فنزل هذا الأخير لابساً درعه ، حاملاً سيفه ووهقه ، محتطياً رخشه . وضربه ضربة أنزلته عن فرسه . فأسره وأخذه لأصحابه الذين أنزلوا سيوفهم به . فتناثرت أوصانه وأجزاؤه ، وتطايرت أعضاؤه وأشلائه ، آخذين بثأر الفارس الواذ الذي كان قد قتله قبل منازلته رستم . فذُعِرَ الأتراك لموته غير عالمين انه قتل على أيدي رستم . ثم أرسلوا هومان لمعرفة من هو من الفرسان . فلما اقترب وسأله عن حاله ، عرف انه رستم الذي طلب منه وقفاً للحرب تسليمة قتلة سياوخش ومقابلة بيران . فبرز بيران هائجاً ، ولسرادق رستم مشى خاضعاً . فتصافحا وتعانقا ، طالباً الصفح من رستم وكيخسرو ، ذاماً شاماً افراسياب الذي لولاه لهدأت الأرض ، وانه لو اختار ففي ملك كيخسرو صار . ولكن ما الحيلة وكل أقاربه وأقرانه تحت

إمرة افراسياب . ثم وقف على طلبات رستم في وقف الحرب . فلما عاد وقابل الخاقان نصحه بوقف القتال ، إلا أن شنكل الهندي ملك الهند ، غيّر من رأي الخاقان ، وبأمل الانتصار وعده بأمان . فتحضروا وللحرب نزلوا . بعد أن رفضوا طلب رستم . وتقدم بيران من شنكل الهندي مذكراً إياه بوعد الانتصار . فما كان منه إلا أن قسم الجنود إلى ثلاثة أقسام واضعاً في كل قسم ثلاثين ألفاً ، يبدو من خلالها الفيلة العظام ، ثم نزل طالباً منازلته رستم . فتقابلا وعلى الثأر تنافسا . فهرب شنكل مُتَجَنِّباً بجنوده ، وتقدم رستم خارقاً بصفوفه . وأخذ يدور زائراً كالأسد ، مقتحماً الأقسام ، مشتتاً شملهم حتى وصل إلى الخاقان . فضربه بوهقه وأنزله عن فيله . فكبلوه وأخذوه أسيراً . فلما رأى بيران ما حلّ بجيش افراسياب ، ولى هارباً ، كالغزال راكضاً . أما رستم وقواده ، فاستباحوا خيمهم ونهبوا أرزاقهم . وحملوا قسماً كبيراً بقيادة فري برز إلى كيخسرو . وتابع رستم طريقه في قصد افراسياب . فوصلوا أرضاً واسعة كالمراعي البانعة . فنزلوا فيها وبقوا ردهاً من الزمن يأكلون ويشربون وبنصرهم ينتشون . أما فري برز الذي وصل إلى كيخسرو فقد استقبل استقبالاً عظيماً . داعياً مع الملك إلى بقاء رستم بن دستان بطل ممالك إيران .

جَمَعَ افراسياب أمراءه وأعوانه للتشاور والتداول بعدما
 سمع بمقتل كاموس وأسر الخاقان وانهزام بيران . فنصحوه
 بالتصدي لابن دستان قبل أن يتوغل في بلاد توران ،
 فيقُضَّ ملكه ويزيل عهده . فهياً جيشاً عظيماً ، وأرسل
 مع ولده شيد رسالة إلى جني يُدعى بولاذوند يعده فيها
 بنصف ممالكه إن هو تمكن من رسم . فجاء هذا الأخير
 مع أصحابه ووعدوه بالغبلة إن اتبعوا طريق الخيلة . في
 هذه الأثناء كان رسم قد ترك أرض إيران وتوغل في ممالك
 توران . فوصل قلعة حصينة لملك يُدعى الكافور من آكلي
 لحوم البشر . فحاصر القلعة ورمأها بالسهم بعدما استعصت
 على قائده كستهم وجنده الذين قُتل منهم عدد كبير .
 ثم أمر الحفارين بوضع أسسها ومبانيها على ألواح من
 الخشب . ورمأها بالنار واللهب . فانهدت على من فيها .
 ثم أكمل طريقه واستولى على ديار الختن ، فأصبح قريباً
 من أرض افراسياب . وفجأة تلاقى الجمعان بسيوف صليلة
 ورماح كثيرة . واستطاع بولاذ الجني حشر طوس وجيو
 وبيثرن ورُهام . وشطر اللواء الى شطرين . فلما رأى رسم
 ما حلَّ بقواده ، تصدى لبولاذ . فنازله وصارعه وفي
 أرضه وضعه . فوثب هارباً ولأفراسياب مُخبراً ، الذي
 كان قد أخذ صحبه وغير دربه . وجمع ما يمكنه حمله

من الفئاس والذخائر . وتوجه ليعبر الى الناحية الثانية من
 بحر الصين، منتقداً رأسه، حافظاً جلده . أما رسم فقد رجع
 الى الملك كيخسرو بعدما أقام زمناً في بلد افراسياب .
 فاستقبل كالفاتح مرشوشاً بالروائح . وبقي مدة عند الملك
 بين شرب ورقص وفرح ومرح .

وكلفه كيخسرو وهو عنده بالقضاء على اليعفور الذي
 ظهر فجأة وأخذ يقتل الخيل بعد انقضاء الليل . فخرج
 رسم الى الصحراء التي ظهر فيها ، باحثاً بين مروجها
 ومراعيها . وظلَّ على تلك الحال ثلاثة أيام . ولما كان
 اليوم الرابع ، مرَّ اليعفور من أمامه كالريح الهوجاء في
 مسابقة العنقاء . فلحقه رسم ولم يجده فأدرك انه أكوان
 الجنى . ثم ظهر له في آخر الصحراء . فلحقه مُسرِعاً
 ونام بعد ثلاثة أيام مُتعباً . وبينما هو نائم ، اقترب أكوان
 من المكان وكوّر الأرض النائم عليها وحماها بين يديه .
 فاستيقظ رسم من نومه، وأخذ نفسه على غفوته . وكان يدرك
 أن الجنى يعمل بعكس ما يُقال له . فلما سأله الجنى عن
 الموضع الذي يريد أن يرميه فيه أجابه على اليابسة حتى يقتل
 الأسود والسباع الضاربة . فرماه هذا الأخير في البحر .
 فأخذ يسبح بيده اليسرى ويقتل الحيتان وسباع البحر باليسرى .

فلما وصل إلى الشاطئ ، نشف ثيابه وغسل جسده وشكر ربه على نجاته من الخطب العظيم . ثم عاد إلى المكان الذي اختطفه فيه أكوان وهو من ملك افراسياب الذي خرج لمقاتلته بعدما علم بوجوده . فقَاتله طويلاً وقتل من جنود افراسياب عدداً كبيراً . ولما ظهر له أكوان ، قاتله في ذلك المكان . فرماه بوهقه وقتله وقطع رأسه الكبير الذي يشبه رأس فيل ، ومن ثم علّقه بسرجه وعاد إلى الملك كيخسرو . فاستقبل بألعاب المبارزة والمطاردة وجلس مع الملك وصحبه يتعاطون كؤوس الأرجوان على الورد والريحان إلى تمام أسبوعين . ثم ارتحل إلى زيارة والده بعدما خلع عليه الملك خلعة تشتمل على أصناف الكرامات والمبرات .

ذات يوم كان كيخسرو جالساً في مجلسه ، فجاءه جماعة من أهل أرمان (وهي ناحية بين إيران وتوران) مستنجدين ومن الخنازير البرية هاربين . فرق لهم ، وأوصى بيثرن ابن جيو الذي عرض نفسه للخدمة بمقاتلة الخنازير ، مصطحباً معه جرجين بن ميلاد العارف ببلاد توران وبشعاب أرمان . فلما وصلا إلى هناك ورأى جرجين شجاعة بيثرن في محاربة الخنزير . دخل إليه الحسد وفي قلبه اتقد . فأشار عليه بروضة غناء تذهب إليها منيرة ابنة افراسياب . فذهبا

لاستراق النظر بدون خفر . فلحظته منيرة جالساً تحت ظل شجرة . فوقعت في حبه وأرسلت خادمتها تستدعيه . فلما جاء جلس معها تحت الأفياء . يشربان ويتنادمان وحباً يزدادان . ولما أرادت الارتحال سقته دواء مُرقيداً ، وحملته معها إلى منزل والدها بعدما ضاجعته ومن حبها استوهبته . فلما استفاق ، وجد نفسه في أرض توران وفي قصر افراسياب بالتمام . لكن أمره عُرِفَ وسره كُشِفَ . فقصدته كرسبوز بناءً على طلب أخيه افراسياب . فدخل قابضاً عليه بحيلة ، ثم جره إلى الملك افراسياب الذي أمر بصلبه ، وزَهَقَ روحه . لكنه عاد وغيّر رأيه بعد تشفعات بيران ، وأمر بوضعه في بئر مظلمة لا يدخلها نور الشمس ولا القمر ، وسدّها بابها بالحجر الضخم الذي أتى به أكوان الجني من بحر الصين . أما ابنته منيرة فقد استباح ملكها ، وإلى الصحراء جرّها . فأخذت تطوف باحثة عن كسرات خبز تعطيتها لبيثرن من الثقب الذي في باب البئر .

رجع جرجين وهو حزين بعدما حاول العثور على بيثرن . فلما رآه جيو والد بيثرن . سأله عن ولده . فشوّه له الحقائق قالباً إياها رأساً على عقب ، فأخذ يلطم ويندب مُوصلاًً أمر ابنه إلى الملك كيخسرو ، الذي هدأ أمره

فأمسوا ولما أصبحوا ، نظر الملك في أحوالهم ومن الجواهر
والخيل النفيسة أهداهم .

هالَ افراسياب الهجوم الذي حصل في عقر داره .
فأرعدَ وأزبدَ وأندر وتوعد . وراسل بغير ملك الصين
وسائر ملوك الأطراف فأنجدوه بجيوش جرارة كالأمواج
الهدارة لم يحصل عليها أحد من ملوك الترك قبله . فرتبها
وقسمها ووضع قواده في قيادتها . ثم وجهها لملاقاة جنود
كيخسرو في سائر الممالك والأطراف . وسير مع إيران خمسين
ألفاً . فوصلوا إلى جبل عظيم حُصِرَ بالإيرانيين . فوقفوا
واستعدوا .

أما كيوخسرو فلما وصلته أنباء افراسياب ، جمع كل
فارس ومقاتل من بلاد الروم والهند والعرب . وقسم العسكر
إلى أربعة أقسام . فجعل رسم يتجه إلى سجستان .. ويتوغل
في بلاد الهند وغزاة فيفتحها . وأعطى لهراسب ممالك الان .
وجعل اشكس يتوجه لملاقاة شيزه بن افراسياب . وجعل
على القسم الرابع جوذر بن كشواذ وغيره من القواد .
فساروا حتى صار الجبل عن يمينهم ، والماء عن يسارهم ،
والعدو من ورائهم . فخيّموا هناك واستعدوا .

رتب القواد صفوفهم ، وقسموها إلى ميامن ومياسر

وخفف روعه واعدأ بالنظر في الفلك وإخباره بأحوال ابنه .
فلما نظر ، وعن أحوال بيثرن اطلع . أرسل مع جيو رسالة
إلى رسم يدعوها للنهوض وعن ابن جيو يدود . ففعل
بما أمر ، وتوجه إلى الملك ، وبقي عنده مدة في روضة
كأنها الجنة . آكلأ شارباً ومن الفرح والمرح غارفاً . ثم
جمع نفسه مع سبعة من أمراء البلاد ، وجرجين الذي تشفع
له عند الملك فرضي عنه ، وعدد كبير من الجنود قاصداً
أرض توران . فدخلها متنكراً مع أصحابه بزي تاجر .
فلما سمعت منيرة بالتجار القادمين من بلاد إيران ، قصدتهم
وعن أمر كيوخسرو وجيو سألتهم . لكنهم أبعدها وعن
الأمر نهروها . ثم لطفوها بعدما عرفوها ، وأخذ رسم
يسائلها حتى عرف أحوال بيثرن . فوضع خاتمه في فرخة
وأمرها بأن تأخذها إلى بيثرن ، الذي ما أن رأى الخاتم ،
حتى هلكَ وللمنقذ بشر . وفي ليلة ظلماء ، اتجه رسم
مع صحبه إلى مكان البئر . فأزاح حجره وحده ، وأخذ
عهداً من بيثرن بالصفح عن جرجين . ثم انتشله وفي بيته
وضعه مع منيرة . وأمر عسكره بالهجوم على قصر افراسياب .
فهجموا وقتلوا وذبحوا ونهبوا ثم رجعوا إلى حضرة الملك
كيخسرو الذي أعد لهم مقصفاً فاخراً ومكاناً باهراً .

وأرسل له طوس ليعاونه في صد أفراسياب إذا عنّ له أن يقطع نهر جيحون مع العلم أن جنودهم قد توغلوا في ممالك توران وحكموها بعد إيران .

لجأ بيران إلى الحيلة عندما عرف بتوغل جنود إيران في ممالك توران . فبعث مع ولده روثين رسالة إلى جوذرز يقترح فيها وقف الحرب وإعادة تقسيم الممالك ، وحثه في ذلك الخوف على البقية الباقية من جنود الإيرانيين من فتكه وبطشه . ثم ختم رسالته قائلاً : « فإن أبيت ، وعلى الحرب نويت ، لاقني مع عشرة من أمثالك للتيارز واحداً واحداً لئرى من ستكون له الغلبة بعد هذه الواقعة » . رفض جوذرز اقتراح بيران ، ولأقاه في عشرة من كبار قواده مثل فري برز بن كيكائوس ، وجيو بن جوذرز ، ورهام ابن جوذرز ، وبيثرن بن جيو ، وهجير بن جوذرز ، وزنكه بن شاوران ، وجرجين بن ميلاد . فقتل كل واحد منهم ، قريناً له من قواد الأتراك وأشجع فرسانهم . ثم تقابل جوذرز وبيران وظهرت الغلبة للأول حين ضرب فرس خصمه بنشابة رمت صاحبها عن ظهره . فلحقه واستمهله . فرق قلبه له . لكن لما ظهر لؤمه وشره ، رماه جوذرز بقوس أصاب ظهره . ففار الدم من فمه وتقدم

وقلوب . وظلوا على حالة التأهب خمسة أيام . فلما انقضت جاء بيثرن إلى والده داعياً إياه إلى شن الهجوم . فاستمهله وعلى خطته أطلعه . وفي الناحية الأخرى ، كان هومان شقيق بيران يبحث أخاه في بدء القتال . فلما لم يلق منه جواباً . تقدم داعياً للمبارزة . فلاقاه بيثرن مُلبياً دعوته : فتنازلا وتقاتلا ، وبالرمح والسيوف تطاحنا ، ثم استراحا قليلاً ليعاودا القتال . فلما رجعا تمكن بيثرن من هومان بضربة أوقعته أرضاً فاستلّ خنجره وذبحه . ولما رأى نفسه سيعود من أرض عدوه ، لبس لباس هومان ، وتسليح بأسلحته حتى وصل إلى معسكره . فلما رآه الجنود سالماً ، شكروا ساجدين ، وإلى ربهم مبتهلين .

أما بيران فقد حثّ شقيقه الثاني نستيهن على الأخذ بالثأر . فتقدم بجيوش كثيرة ، ما أن أصابتها سهام الإيرانيين حتى فروا هاربين تاركين خلفهم جثة قائدهم نستيهن . فأرسل بيران رسولاً يطلب النجدة . وحذا حذوه جوذرز الذي ما أن وصل ابنه هجير إلى الملك كيخسرو ، حتى رده مُبشراً ، وعن النصر مُبلِّغاً . فقد استولى رستم على قشمير وكابل ، وأشكس على خوارزم بعد هزمه شيذه ابن أفراسياب ، ولهراسب على ممالك الان إلى أقصى الخزر .

جوذرز شارباً من دمه ، منتقماً لسياوخش ولأولاده السبعين .
ثم تركه وأرسل ولده رُهام ليجلبه مع الآخرين ، ليراهم
الملك كيخسرو لدى وصوله . الذي ما أن وصل ، حتى سجد
لله العليم ، القادر على كل ذي شأن كبير . ثم أجزى
جوذرز ممالك أصبهان ، ووضعها على عرشها وتاجها .
ونخلع على كل القواد والأمراء ما حصلوه من عسكر
بيران ، الذين جاؤوا يطلبون الأمان . فأدخلهم في طاعته
وبثهم في مرافق البلاد . ولما رأى جثة بيران ، بكى
وفاضت دموعه لما سلف إليه من الإحسان ، وذكره بالخير
وأسف على موته ، فقد سبق السيف العذل . ثم أخذ
خرزة كان قد ورثها من أجداده ، فشدّها على عضد كستهم
الذي جرح بعد قتله فرشيد ولُهاك ، ولدي بيران ،
الذين لحقها ، وقرب النهر فتك بهما . وظلّ متأثراً بجراحه
حتى أسعفه بيثرن بن جيو ، فنقله محمولاً ليكحلّ رؤيته
بوجه الملك قبل أن يموت . لكن الملك شفاه ومن كثير
نفاثسه أعطاه . وصمم كيخسرو على اللحاق بأفراسياب
وقطع نهر جيحون . فجهّز لذلك جيشاً يفوق كل
الجيوش التي قادها عدداً وعدة ، اعتمد في معظمه على
القبيلة التي كانت تقل أبر: قواده .

علم افراسياب بهزيمة جيشه ، وبقتل بيران وأخويه .
فتألم وبكى ، ومن ظلم كيخسرو شكاً . وأقسم أن يرد الصاع
صاعين وينتقم من كيخسرو . فجهّز لذلك جيشاً من أعظم
وأضخم جيوش توران ، وتوجه وقطع نهر جيحون بآلاف
القوارب في مدة أسبوع . فلما وصلوا ، تآهب الجيشان ، ولم
يحركا أي ساكن للحرب . ولما كان اليوم الثاني ، أرسل
افراسياب ابنه شينه رسولاً الى الملك كيخسرو ، يعرض
عليه السلام والعيش في وئام ، فإن أبى وللقتال نوى فهو
مستعد وولده شينه للمبارزة ، ليجنبا جيشها أخطار الحرب
والقتل . فتشاور الملك مع قواده الذين أشاروا عليه القبول
وعدم دق الطبول ، إلا رسم فقد رفض . فنزل الملك عند
رغبته محتججاً بأنه لم يتحمل عناء السفر للموافقة على السلام .
وقبل بدء القتال ، تبارز كيخسرو وخاله شينه . فغلب
الأول ، ونحارت قوى الثاني ، فطلب المبارزة مترجلاً ،
فلما ترجلا والمصارعة ابتداء . رماه كيخسرو الى الأرض ،
واستل خنجره وشق صدره . وعندما علم افراسياب بموت
ولده ، شقّ ثيابه ورثى حاله ، وهجم مع قواده على
جنود إيران فتطاحنوا وتصارولوا وذهب منهم خلق كثير مما
أدى بكرسيوز شقيق افراسياب الى وقف القتال والهروب
مع أخيه وجيشه قاطعين نهر جيحون الى ممالك توران . فلما

وصلوا تحصنوا كالأسود في مقر ملكهم ودار عرشهم .
قطع كيخسرو نهر جيحون وتابع فتوحاته في بلاد
الترك مُعطياً الأمن والأمان والعدل والإحسان لكل بلد من
البلدان . ثم التقى افراسياب بمدينة كلزريون . فتحاربوا
وطلب من الله تعالى أن ينصره ، وعلى عدوه يقهره .
فأنزل الله ريحاً عاصفة ذرت التراب في وجوه الأتراك .
ففرّوا هاربين وأسلحتهم تاركين . وهرب افراسياب أيضاً
وتحصن في قلعة منيعة ، ذات أبراج شاهقة وطويلة . تتصل
بالجبل من جهة وبوادٍ عميق كثير الماء من جهة أخرى .
فركب عليها المناجق والرماة ، وسمكها بالحجارة . فلما
وصل كيخسرو أمام القلعة ، خيم مع جنوده حوالها ،
 ووضع رستم في الميمنة ، وفريبرز في الميسرة ، وجوذبرز
في ناحية أخرى مُستعداً للحصار وبدء القتال بعد رفضه
السلام والمبارزة مع افراسياب .

شن كيخسرو الهجوم من كل الجهات . فأحدث
بذلك بلبلة في صفوف رماة القلعة ، وأشعل النار في الحطب
الموضوع على بابها فخافوا وذهلوا . وتمكن رستم من
الدخول من ناحيته ، ففتح الأبواب وتدفق الجنود كالمياه
في الأخلدود . فأسروا ونهبوا وحرقوا وقتلوا ، وجلس

كيخسرو على عرش القلعة بعد هرب افراسياب من باب
سري مع ألف من الجنود . فحكم وَعَمَّرَ وبالإحسان سيطر .
ولما جاء الربيع جاءت الأخبار عن افراسياب واستنجاده
بالخاقان بغيور ملك الصين . وأنه متجه إليه في جمع مُتلاطم
وعسكر متفاقم . فخرج من قلعة كَنك ووجهَ عسكره نحو
افراسياب . وبعد مدة من المسير ، تقابل الجيشان وهم
على مسافة ميلين . وأرسل افراسياب رُسله للمعاودة طلب
السلام ووقف الحرب . لكن كيخسرو رفض ، وأراد
متابعة القتال ، وطلب من جنده عدم المجيء بأي حس أو
حركة حتى يشعر عدوهم أنهم نائمون ومن كثرة الشرب
يترنحون . ففعلوا وعلى أمره نزلوا . فلما فاجأهم افراسياب
انقضوا كالصقور الباسلة في السماء الشاسعة . وكالمرة الأخيرة
أذرى الله في عيونهم رياحاً ترابية ، وفي نفوسهم انهزاماً
مدوياً . فطلبوا الأمان بعد هرب افراسياب الذي توجه
مستنجداً بملك الصين ، فلم ينجده ، وعن ممالكه أبعده .
فرجع سائراً الى بحر قزوين . فركبه حتى وصل الى قلعة
كنك دز ، فنزل فيها وتحصن ببعدها عن مكان كيخسرو .

اهتم كيخسرو بالأغنام التي غنمها من بلاد افراسياب
فحمل الكثير منها على ظهور الفيلة والبغال والثيران الى

ملك جده كيكائوس مع جيو بن جوذرز الذي ما ان وصل الى كيكائوس حتى خلع عليه الهدايا ، وأنزل أسراه ومنهم جُهَن بن أفراسياب أحسن الأماكن ، جاعلاً في خدمتهم مئات الخدم والحشم . ثم رجع جوذرز الى كيكائوس وأبلغه رسالة جده ففرح بها ، ورحل عن كيكائوس منصباً مكانه كستهم بن نوذر . فوصل سيائوخش كرد المدينة التي بناها والده . فبكى وتضرع ومن كأس الصبر تجرع ، وأكمل طريقه الى بلاد الصين ، فاستقبلوه مُرحِّبين نازلاً في ضيافة ملك الصين ثلاثة أشهر . ولما أراد أن يمر من مُكران ، منعه ملكها ، فسار بجيش عظيم متضرعاً الى الله العليم . ففتحها وسبى أهلها وقتل ملكها . ثم اكمل طريقه واضعاً مكانه اشكس . فلما وصل ساحل البحر . أخذ مؤونة لمدة سنة : فأبحر مع جنوده بعون الله ، بزوارق كبيرة . ورأوا في البحر عجائب كثيرة . وظل البحر هادئاً على غير عادته . وبعد سفر سبعة أشهر في البحر . وصل البر . فرأى بلاداً عامرة وجنات ساحرة . وأطاعه أهل تلك المدن فسلم زمامها الى جيو . ثم قصد قلعة كيكائوس مكان أفراسياب قاصداً احتلالها وقتل سكانها .

هرب افراسياب خفية بعدما علم بوصول كيكائوس الذي دخل القلعة . فسلمت له . وأقام فيها سنة في بساطتها

الناضرة وحدائقها الزاهرة وعيونها المتفجرة وأزاهيرها المنفتحة . ولما كان الارتحال الى بلاد توران . رجع على نفس الطريق ، متنقلاً من البر الى البحر ، ومن البحر الى البر . فوصل قلعة كيكائوس بعد نزوله ضيفاً على رستم في ممالك الصين ، وأخذ الكنوز المخبأة في مدينة ابيه سيائوخش كرد . ففرقتها على قواده وأمرائه وأفراد عسكره . وظل يسأل عن أخبار أفراسياب طالباً من الله تعالى أن ينصره على عدوه . ثم إذه اشتاق الى لقاء كيكائوس فسلم الممالك التي فتحها الى كستهم بن نوذر ورحل عنها الى ايران مُحملاً بالآثقال والغنائم من الذهب والجواهر والمسك والعنبر ، والملابس والمفارش والأسلحة والعُدَدَ وسائر ما يُجلب من أرض مُكران والصين ، الى غير ذلك من الخيل والجواري والغلمان . فمرَّ بالسغد وبُخارى وبلخ والطالقان ومروالروز والري وبغداد . وكان في كل مدينة يمر فيها ، تُنثر عليه الجواهر والذخائر ، فيُقابل أهلها بالملاطفة والإحسان والعدل والأمان . ولما وصل الى فارس مقر ملك كيكائوس ، استقبله بالعناق وبإقامة المآدب والمقاصف . فترلوا يشربون وإلى الحسان يستمعون . وهو ما زال على وعده في الانتقام من افراسياب .

موت البطلين

قد يكون من الأمر العجب . والاعتزال عن الدنيا
وَجَبَّ . فإنه لما مات كيكائوس وأوصى بكل شيء إلى
حفيدة كيكائوس . وهدأت الامور وانتظمت الأحوال .
أخذ كيكائوس يفكر في أمور حياته ويوم مماته ، فبعُد
عن الناس واختلى بربه أياماً يصلي ويتعبّد . فلما خرج
رأى الجمع من حوله في حيرة وسؤال . وهذا يسأل ذلك:
« ما حلَّ بِمَلِكِنَا . هل أصابته لوثة ، أم الشيطان على
عقله استولى ؟ » . فهدأ من روعهم ، وأسرى عن خاطرهم
وأخبرهم أنه ينوي الحضور بين يدي الله تعالى . ثم احتجب
مرة ثانية وطال احتجاجه . وزاره الملاك في نومه وأخبره
عن قرب موته . فخرج في اليوم الثاني وأخبر أصحابه

أما هذا الأخير ، فإنه لما هرب من القلعة . تاه في
البراري والسهول وجاء إلى بردعة (من مدن أرّان في
الشمال الغربي من أذربيجان) واختبأ داخل مغارة في إحدى
جبالها . فوجده ناسك متعبد من أولاد افريدون يسمى
هوم ، الذي ما أن سمع صوته يبكي ويندب حتى ذهب
إليه وكبّله وفي كهفه وضعه . وبينما هما ذات يوم على
ساحل البحر ، فكّ وثاقه بعدما رجاه . فقفز افراسياب
في البحر وتوارى عن النظر . واتفق أن جوذر بن كشواذ
وولده جيو خرجا خلف الملك كيكائوس - السذي ذهب
مع جده كيكائوس إلى بيت نار في أذربيجان ، يتضرعان
إلى ربهما متخذين النار قبلة - فوصلا إلى ذلك الساحل ،
فقصّ عليها الناسك خبر افراسياب ، فنقلا الخبر بدورهما
إلى الملك كيكائوس الذي جاء وظلّ مع الناسك زمناً طويلاً
حتى تمكن من افراسياب وهو في البحر . فقيّده وأخذه
وفي دار ملكه أقرّه . ثم قتله بعدما حاكمه مع أخيه
كرسيوز . وهكذا انتقم لدم والده سیاوخش . فهناً له
المقام ونظّم الأحوال وحكم بالعدل والإنصاف بعدما عاد
إلى فارس .

فرجعوا إلى تلك العين ، وتناولوا شيئاً كان معهم ، وناموا ساعة . فأمطرت السماء وتغيرَ الهواء . فهطل الثلج وغطى المرج . وظلَّ يهطل حتى هلكوا أجمعين . أما الثلاثة الذين نجوا وعلى الجبل بقوا . فأخذوا ينتظرون لعلمهم يرجعون . فلما أدركوا ما أصاب البقية . أخذوا في البكاء والعيول . وطفق جوذرز يضرب نحره ويتنف شعره على فقدته كل أولاده . ثم رجعوا إلى لهراسب فرضوا بملكه وحكمه ، وأجلسوه على عرشه في يوم المهرجان . فبايعه جميع الأمراء ، ودخلوا في طاعته . واستطاع بعقله وذكائه أن يحكم بالعدل والإنصاف على سير الملوك الذين استلم التاج منهم . وكان له من بنت كيكائوس ابنتان كأنهما قمران هما كشتاسب وزير .

كان كشتاسب طموحاً وشجاعاً . فلما انتشى مرة من الشراب ، طلب من والده أن يسلمه زمام الحكم . فرفض الوالد لحدائثة سن ولده . فما كان من الأخير إلا أن هرب خارجاً عن طاعة أبيه . فتوجه إلى الهند مع بعض من الجند . فألحقه والده بأخيه زير الذي التقاه في أرض خضراء قرب كابل ، يصطاد الحيوانات . فتحدثا وتناشوا . ورضي كشتاسب بالرجوع مع أخيه إلى حكم أبيه . ولأنه

وأحباءه أنه ينوي اعتزال الحكم والمثول في رحمة الله تعالى . فلطموا وندبوا ولم يصدقوا . لكنه أقنعهم وفي مجلسه جمعهم وأعطى ممالك نيم روز وسائر ما يُضاف إليها ويُعدُّ من نواحيها إلى رستم ، وممالك قُسم واصبهان إلى جوذرز ، وممالك خراسان إلى طوس . ونصَّب لهراسب على العرش والتاج بدلاً منه . فاحتجَّ بذلك «زال» لوضاعة أصله وعدم معرفة نسبه . لكن كبخسرو أقنعه ، وعن انتماء لهراسب لأوشهنج أخبره . فرضوا به ملكاً عليهم ، وحيّوه بتحية الملوك ، ونثروا على تاجه الجواهر .

فتح كبخسرو خزائن المال ، وفرّقها على كل فقير ومحتاج . وأمر ببناء ما هدّمه افراسياب . ثم ودّع أهل بيته وعشيرته ، وخرج مع أكابر إيران إلى جبل فأقاموا عليه أسبوعاً . وخرج في أثره ألوف الرجال والنساء يكون ويضجون ، وإلى العودة إلى عرشه يتضرعون . لكنه طلب منهم العودة . فعاد زال ورستم وجوذرز . أما البقية ، فلم يقبلوا . وساروا معه حتى وصاوا إلى عين ماء . فقام وودّعهم وأمرهم بالرجوع لأن الثلج سيسد الطريق فيصبحون كالغريق . ثم ناموا . ولما طلعت الشمس ، فتشوا عليه قرب العين فلم يجدوه ، وفي الصحاري والجبال لم يلقوه .

رجع على مفضن . عباد وهرب وحده متجهاً نحو بلاد الروم . فقطع البحر دافعاً بعض المال لرجل يدعى هيشويه هو وكيل السفن . ونزل بمدينة هي مستقر عرش قيصر ملك الروم . فلما ضاقت به الحال أراد أن يعمل ، لكنه رُفِضَ كاتباً لشكله القوي ، وحارس خيل لأنه أجنبي ، وحداداً لضربته العنيفة . فلما يئس خرج إلى ضيعة يستظل بأشجارها ، ويشرب من مائها ، فلاقاه هناك رجل من أهل تلك الضيعة من ذرية افريدون . فاستضافه وفي بيته أقامه .

وكان لقيصر ملك الروم ابنة في سن الزواج تدعى كتيون . وكان من عادة بناته إذا أردن الزواج أن ينتخبن أزواجهن بأنفسهن . فاختارت كتيون كشتاسب زوجاً لها من بين ألوف الرجال لرشاقة قده وجمال وجهه . فتخلى والدها عنها وطردها ، لأنها اختارت زوجاً بعيد الحساب والنسب عن الملوك . فأخذها كشتاسب وعاشا في بيت صديقه ، وكان كل يوم يذهب إلى الصيد ، فيصطاد كثيراً يُعطي منه هيشويه ويفرِّق الباقي على أهل تلك الضيعة .

أما الابنة الثانية . فقد اشترط قيصر على ميرين أحد أمراء الروم ، وسليل سلم بن افريدون ، وطالب ابنته الثانية ، أن يقتل الذئب الأغبر ، ذا القرن الأكبر ، حتى

يقبل به زوجاً لابنته . فاهتمَّ واغتمَّ ، وفي الكتب راح منجماً . ورأى في كلام القدماء ، أنه يأتي إلى أرض الروم رجلٌ من إيران ، يتزوج ابنة قيصر ويقتل سبعين عظمت أذيتها للناس . فاتصل بكشتاسب زوج الابنة الأولى عن طريق هيشويه . وأعلمه عن حاله وخير قصده . وطلب منه قتل الذئب الأغبر . فقبل مرحباً وللمهمة مدبراً . ونازل الذئب الأغبر كأنه الأسد الأكبر . فقتله بسيف سلم الذي أعطاه إياه ميرين ، وأخذ نابين من أنيابه وأعطاهما لميرين فسراً كثيراً ، ومن الهدايا أعطاه وثيراً . فقبلها آخذاً سيف سلم وفرساً شهباء ، واهباً الباقي لهيشويه .

عرف أهرن ، أمير آخر من أمراء الروم ، وطالب الابنة الثالثة لقيصر ، بأمر ميرين . فراسله ، وعن أمر شجاعته المفاجئة سأله . لأن قيصر اشترط عليه أن يقتل الثعبان الضخم في جبل سقيلا ، ويريح الناس شره ليزوجه ابنته . فلما عرف ، اتصل بكشتاسب عن طريق هيشويه . فرحَّبَ قابلاً ، وذهب مقاتلاً الثعبان . فضربه بسهم ثم برمح . فخرَّ الثعبان صريعاً ، ينفث اللهب والسم ، ثم أخذ نابين من أنيابه وأعطاهما لميرين وبدوره أعطاهما لقيصر فزوجه ابنته .

في يوم ذهب كشتاسب إلى ميدان الملك مُشاهداً ،
ومن فرط حماسته نزل مقاتلاً . فَغَلَبَ كل من تقدم
لمنازلته . فتعجب قيصر من حاله ، وأرسل في أمره . فلما
حضر ، سأله وجاوبه . وعرف منه أنه زوج كتيون
وقاتل الذئب والثعبان . فأنزله في قصره ، ووهبه من كرمه
حتى أصبح الفارس الأول عند قيصر . ثم أخذ يرسله قائداً
على عسكره ، فتوجه أول ما توجه لمقاتلة الياس ملك
الخرز الذي تهرَّب من دفع الخراج . فواجهه في جيش
ضخم حتى قلبه قيصر وولده . وهجم كشتاسب على الياس
بطعنة أذرتة عن فرسه . ومن ثم من بين فرسانه . وركض
به مُسلماً إياه إلى قيصر . ثم زحف ثانية فزلزل مواقع
عدوه ، وبدد جموعهم ومزقهم كل ممزق .

وأراد قيصر من ملك إيران أداء الأمان ودفع الخراج ،
وبعث إليه برسول يبلغه عن عزمه على القتال في حال عدم
دفع الخراج ، وهدده بفرخزاد (اسم كشتاسب في بلاد
الروم) الذي سيدوخ دياره وسيملك بلاده . فلما وصل
الرسول ، وطلب الثول ، أدخله واستقبله وعن بطلهم
سأله . فأجاب أنه كزير شياً خلقاً وشمائلاً . فعرف أنه
كشتاسب ابنه ، وأرسل زيرير خلفه . طالباً منه تسليم التاج

والعرش إلى كشتاسب . فلما وصل زيرير إلى حضرة ملك الروم .
دخل عنده ، وعن عزم أبيه على الحرب أخبره . فلما عرف
كشتاسب بما نوا ، وعلى الحرب صموا . زار زيرير في
معسكره وعرف منه قصد أبيه في تسليمه العرش والتاج .
فصالح والده ، ونزل قيصر وأعوانه في خدمته . أما
كتايون زوجته ، فبالغ والدها في تكريمها وأرسلها إلى
زوجها مع هداياها وجواربها .

استلم كشتاسب ملك أبيه الذي انقطع عن العالم مُتعبداً
إلى الله تعالى . فمات بعدما أقام في بيت الله مدة ثلاثين
سنة . وعلى سيرة أجداده ، بسط كشتاسب العدل والأمان
والخير والسلام ، وفي عهده ظهر زرادشت ، يدعو إلى
دين جديد ذي حق شهيد . فأمن به كشتاسب وعمل على
تثبيت دينه في كل ممالكة . وبني للنار بيوتاً كثيرة ، وجعل
لها قباباً رفيعة . ثم غرس على باب بيت نار بكشمير
شجرة سرو . فعَلَّتْ واستغلظت وفي السماء ارتفعت . فبنى عليها
قصرأ منيعاً ، جعل سقفه من ذهب ، وأرضه من فضة ،
وترابه من عنبر . ورضع حيطانه بالجواهر واليواقيت
الزواهر . وأمر جميع الملوك والأمراء بالمصير إلى خدمة
هذا السرو ، وبإستماع مواعظ زرادشت ، والدخول في

دينه ، وترك عبادة الأصنام والأوثان . لكن ارجاسب ملك الصين لم يقبل الدعوة ، وعلى عرشه رفض واستعلى . وبعث إلى كشتاسب رسالة يعنّفه ويوبّخه وعلى دينه الجديد يؤنّبّه ، ويهدده بحافل العسكر إن لم يرتدع ويرجع .

ردّ كشتاسب على ارجاسب برسالة مُدبّجة ، وبلغته الحرب مصممة . كتبها وزيره العاقل جاماسب ، وشقيقه زيرير وابنه اسفنديار من بنت قيصر الروم ، فما أن قرأها ملك الصين حتى هبّ واقفاً والعسكر جامعاً . فألّف جيشاً عظيماً ، أعطى قيادة جانيه إلى أخويه كهرم واندريمان ، ورأسه لأمير يُدعى خشاس ، ولتركي طاعن في السن ، أفنى عمره في الغشم والظلم وتربى في القتل والنهب .

سمع كشتاسب بخبر الجحافل ، فأمر وجمع ، ولنداء الحرب سمع . وقابل ارجاسب في جمع متلاطم . وبقوا على القتال ، أسبوعين بدون ارتياح حتى انهزم ارجاسب ، تاركاً أرض المعركة لجنوده الذين طلبوا الأمان . وكانت حصيلة المعركة كما تنبأ الوزير جاماسب . فقد قُتل اردشيز وشيداسب ، ولدا كشتاسب ، وزيرير وابنه بعدما أبلوا بلاءً حسناً .

أما اسفنديار فقد صار البطل القهار . فسلمه والده

زمّام العسكر . ثم توجه ودار في جميع الأقاليم حتى إقليم الروم والهند واليمن مُثبّتاً الدين الجديد ، داعياً إلى اتباع تعاليم زرادشت . فاستوت له جميع الممالك ، وأطاعته كل الحلائق . لكن حاله لم تستمر ، وأموره لم تستقر . فقد جاءه جاماسب بينما كان مع أولاده الأربعة . فأخذه وإلى والده أوصله ، الذي قيّده وكتبه بالسلاسل غلّله ، وبقلعة شيدر وضعه ، بعدما نمي إليه من رجل يُدعى كرزوم بأنه يحضّر للاستيلاء على الملك ، وعزّل والده عن الخلق . ثم رحل كشتاسب إلى زابلستان لزيارة رستم بن دستان .

لما علم ارجاسب برحيل كشتاسب ، وبقاء لهراسب والد كشتاسب في بلخ يتعبد مع جماعة له من عبدة النار . وجّه ابنه كهرم على رأس ألف فارس من نخب العسكر . فوصلوا بلخ وأخذوا في القتال ، ناهبين سارقين وكل بيوت النار مهدّمين ، ويُقال إن زرادشت قُتل في هذه الغارة . فخرج اليهم لهراسب بالرغم من ضعفه وشيخوخته على رأس ألف رجل استطاع جمعهم من أهل البلد . لكنه مات برشقة سهم بعد أن أبلى بلاءً حسناً . فبلغ الخبر كشتاسب بواسطة امرأة استطاعت أن تهرب من برائن ارجاسب . فحشد واستعدّ ، وسار حتى وصل بلخ وباميان . فاصطدم

الجيشان ودارت الدائرة على الايرانيين وَقْتِلَ منهم كل
أولاد كشتاسب . فرجعوا الى الورااء واحتموا بجبل كان
هناك . فحاصروهم ارجاسب مستعداً للوقعة الثانية . وأرسل
كشتاسب ، الوزير جاماسب بعدما اطلع على الفلك الى
اسفنديار ، يفك قيده ويحل أسره ، طالباً مساعدته في القضاء
على اسفنديار . وهكذا كان . فرجع جاماسب مع اسفنديار
بعدهما حثه على مساعدة أبيه والانتقام من قاتل إخوانه وسابي
أخواته . فوصلا الى الجبل واخرقا حصار ارجاسب .
فانتعش قلب كشتاسب ، وعرف انه منتصر على ارجاسب .

علم هذا الأخير باختراق جيشه ، وقتل طلائعه . فصمم على
الهرب والاكتفاء بما حصل . لكن رجلاً من أمراء الصين
وقوادها يُسمى كركسار حثه على البقاء والثأر لقواده
العظاء ، الذين قتلهم اسفنديار . فبقى وعلى المعركة نوى .
ولما طلعت الشمس رُتبت الجيوش الى ميامن ومياسر . ثم
انقضوا على بعضهم البعض ونزل اسفنديار كالفيل الهائج
والبحر المائج بطشاً وسفكاً حتى قبض على كركسار ، فأسره
ولأبيه أوصله . ثم رجع يكرّ ويفر حتى هرب ارجاسب تاركاً
جنوده يطلبون الأمان من الملك كشتاسب ، الذي دخل مع
اسفنديار الى بيت نار . فأقاما فيه أسبوعاً ، يتعبدان ويشكران

ربهما سبحانه وتعالى على ما أوفره عليهما من تلك النعمة .

قَرَّرَ اسفنديار اللحاق بأرجاسب وقتله في قلعة روئين دز
التي هي مكان عزه ، ومستقر عرشه وسلطنته . لذلك
استعان بكركسار ليدله على الطريق . فلما سأله واستأمنه
وبإطلاق سراحه وعده . أجابه قائلاً : « للقلعة طرق
ثلاث . واحدة طويلة لكنها عامرة وآهلة . وثانية متوسطة
لكنها معشوشبة ومياهها عذبة . وثالثة قصيرة لكنها قاحلة
وناضبة وهي المعروفة بهفتخوان (أي سبعة منازل أو
خطوب) . يلقاك في أول منزل ذئبان كأنهما فيلان قوة
وشكلاً ، تكاد لضخامة أبدانها وشراسة منظرهما أن تخر
صريعاً . وفي المنزل الثاني يعترضك سبعان كأنهما ناران
تلهبان . وفي المنزل الثالث يتصدى لك ثعبان كأنه التنين
شكلاً وقوة ، ينفث النار لهباً ويستنزل العقاب سهلاً .
وفي المنزل الرابع تلقاك ساحرة شمطاء تُريك البر بحرراً
والبحر برراً . وفي المنزل الخامس يتزل اليك طائر يُعرف
بالعنقاء كأنه جبل يمر في الهواء . وفي المنزل السادس ،
ينزل عليك غضب الطبيعة ، فمن البرد القارس إلى الحر
اللافح ، ومن ثلج الشتاء إلى رمال الصحراء ، وفي المنزل
السابع ، ترى القلعة كأنها سراب ، مُحاطة بالأبراج الشاهقة

والأسوار العالية ، والمياه والجبال من حولها كأنها جنة امتنعت على القاصدين .

صمم اسفنديار على اتباع طريق هفتخوان لأنها أقصر من غيرها . وكان قبل وصوله إلى كل منزل يترك أخاه بشوتن خلفه مع الجنود ، وبعد عناء كل منزل ، كان يرتاح شارباً ويتزل شاكراً ربه تعالى . فلما سار ووصل المنزل الأول ، اعترضه الذئبان كأنهما غمامتان ، فرماهما بسهامه ومزقها بسيفه شر تمزيق . أما السبعان فشققها بالسيف إلى نصفين من مفرق رأسها إلى زورها . وما أن وصل إلى المنزل الثالث ، حتى أمر النجارين بصنع عجلة بفرسين ركبوا في أطرافها نصولاً محدة ، ووضعوا عليها صندوقاً كبيراً ، اختبأ في داخله ونزل من رأس الجبل إلى السهل فبلعه الثعبان ثم لفظه بعدما نشبت النصول المركبة في حنكه وفكه . فخرج من الصندوق سالماً سيفه ، شاقاً دماغه ، فمات بعد أن نث السم زعافاً .

أما الساحرة فقد تبدت له بصورة باهرة . فلما جالسها وسقاها ، خنقها بسلسلة ، استحالت بعدها إلى سبع ثم إلى عجوز شمطاء . فوضع سيفه برأسها وقتلها . ولما وصل المنزل الخامس رآته العنقاء على عجلته . فترلت من السماء ،

ناشبة مخالبتها في النصول . فضعفت قواها وسقطت . فاستل سيفه ومزقها . ولما وصلوا إلى المنزل السادس ، داهمتهم الطبيعة . فخرتوا ساجدين ، وتضرعوا إلى الله مبتهلين ، ودعوه دعوة الصادقين . فسكن الهواء وانجلت السماء . فلما أشرفوا على القلعة بعد عبورهم بقيادة كركاس ، بحراً لا قعر له ولا ساحل ، قتل اسفنديار كركاس لأن لا مأمّن منه . وتقدم سائراً ، مُفكراً بالحيلة التي ستجعله يستولي على القلعة . فتنكر بزّي تاجر وحمل معه الذهب والجواهر والثياب والحراير . وأحضر مائة وستين صندوقاً . وضع في كل صندوق رجلاً ، وسوماً بالشجاعة والجرأة بعدده وسلاحه . ودخل القلعة بعدما اتفق مع أخيه على الهجوم إذا رأى الأخير ناراً لاهبة فوق سور القلعة .

تهافت الناس على الشراء من اسفنديار بعدما سمح له ارجاسب بالبيع والشراء . فأهداه اسفنديار الحلى الثمينة والجواهر النفيسة . وسمح له الملك بوضع الصناديق داخل داره . ومن كثرة ترداده على ارجاسب ، أصبح صديقاً له ، وعن أحوال اسفنديار وكشتاسب سأله . فشوّه أمورهما ، وكفّ لسانه عن سؤالها . وانتهزها اسفنديار فرصة . فدعا الملك وأعوانه إلى وليمة يقيمها على سور القلعة لضيق منزله .

والمالك والخزائن تحت حُكمك وشور بنانك . لكنه لم يرتدع ، وعن الأمر لم يرتجع . وتلاسنَ ووالده رافضاً أن يسير الى زابلستان لتأديب رستم بن دستان، وحثه على دفع الجزية والحراج .

لكنه عاد وسار بدون اختيار ، خصوصاً بعدما وعده والده بالتاج والعرش إذا أدب رستم . فلما وصل الى هيرمند خيمَ هناك وأرسل رسالة مع ولده بهمن الى رستم . يذكره بالعهود السابقة والأيام التالدة ، يوم كان يخدم عند الملوك فارساً ، يحثه على دفع الجزية والانتظام في دفع الحراج للملك كشتاسب ، ملك الممالك في المشارق والمغرب . فلما وصل ، استقبله «زال» وأخذه الى ولده رستم المخيم على حافة نهر . فلما وصلا ، أنزله رستم واستضافه ومن طعامه استزاده . فتعجب بهمن من كثرة أكله ، وعن ضخامته وقوة شكله لم يعد يسأل . ثم شيعه رستم راجعاً الى أسفنديار . مُعطياً إياه رسالة ، متمنياً فيها مشاهدته وخدمته ، عاتباً على مخاطبته بهذا الكلام ، طالباً استضافته ومن ثم التوجه معه إلى حضرة كشتاسب ، والمثول في حضرته للاعتذار من صاحب الجلالة والوقار .

التقى البطلان على حافة النهر . ووعده أسفنديار تلبية

فرحبوا وعلى العشاء نزلوا . فشربوا وثللوا ثم انصرفوا . فقام اسفنديار وأشعل النار فوق سور القلعة . فما أن رآها بشوتن حتى هجم بعسكره . فخرج جنود ارجاسب وأهل القلعة يصدّون الهجوم ويدافعون عن الحصون، فما استطاعوا . ولما أرادوا الرجوع إلى داخل القلعة كان اسفنديار قد أوكل رجاله الذين في الصناديق أمر حماية الأبواب . وذهب مع فئة منهم إلى باب ارجاسب فنازله وضاربه ثم قتله واجتزأ رأسه ورماه إلى جنوده . ففروا هاربين وعن قوة عدوهم متكلمين .

أما كُهرم واندريمان شقيقا ارجاسب اللذان أسرهما فقد صلبها على باب القلعة ونزل هو وجنوده قتلاً ونهباً وأسراً في أطراف توران ، ورجع الى والده في إيران عن طريق هفتخوان ، مُحملاً بما خفَّ حمله وغلا ثمنه بعدما فرَّق ووزع على العسكر حتى أغناهم وزادهم في ذلك على مناهم . وبهذا يكون اسفنديار قد ثار لجدته لُهراسب وإخوته من أبيه كشتاسب .

شكا اسفنديار ظلم أبيه الى أمه . وأخبرها بحديث والده بتسليمه العرش والتاج يوم الثار للهراسب . لكنها نهته وعن التفكير بالأمر ردعته قائلة : « ما لك بالعرش والتاج ،

دعوة رسم ، الذي جهز السطاط بأفخر الأطعمة والشراب .
لكنه تأخر عن المجيء فقصده رسم . فطفق يعتذر محتجاً
بالحر الشديد والطريق البعيد . ثم جلسا يتسامران وعن النسب
والبطولة يتنافسان . فطلب اسفنديار من رسم النزول عند
رغبة الملك وأخذه مُقيّداً اليه ، واعدأ إياه بعدم مسه أو
لمسه ، حتى يتسنى له الحصول على التاج والجلوس على
عرش العاج . لكن رسم أبى وعلى الحرب نوى . وخرج
غاضباً وإلى مكانه راجعاً . ثم أخذ يحضّر جيشه ويجهز
نفسه . ولما حانت الساعة . تقدم البطلان بعدما أمرا جنودهما
بالوقوف على جنب والإمساك عن الحرب . وتبارزا بالرمح
والسيوف ومن ثم بالعمد والدبابيس . وظلا على سجال
حتى تشقت الدروع وتمزقت السروج . واستطاع اسفنديار
بنشابة من الماس أن يصيب رسم ورنخه عدة جروح ،
خصوصاً بعدما اعتدى جنود رسم على جنود اسفنديار
وقتلوا ولديه . وبجيلة استطاع رسم أن يأمن جانب اسفنديار ،
ويرجع إلى مقره ومركز عسكره . فتلقاه زال (دستان)
ورأى النصال . فأخذ ريشة العنقاء ، وحرقتها للحال .
فحضرت ، وجراح رسم ورنخه طببت . ونصحته بطلب
السلام ووقف الحرب . لكن اسفنديار رفض ، وعلى
المبارزة ركض . فما كان من رسم إلا أن رماه بالنصل

الذي ركبه على قضيب شجرة أعطته له العنقاء . فأصابه
في عينه . وأوقعه من على فرسه . وأخذ يحضّر نادماً على
تسّره واضعاً اللوم على والده ، مُعطيّاً بهمن ولده إلى
رسم لتربيته تربية جديرة بالملوك . ثم شهق شهقة
طويلة ومات .

أُرسلَ الجثمان إلى مملكة إيران على ظهور الجمال .
فاستقبل بالعويل ورش الرياحين . ودخل بشوتن على
كشتاسب دون أن يسجد ويقبل الأرض وقال له : « الآن
انقصم ظهرك ووهى أمرك ، وستجد جزاء فعلك ، وتذوق
وبال ظلمك حين أسلمت واندك للموت متمسكاً بهذا التاج
والعرش » . ثم لعن جاماسب ووبخه على عقله ومشورته
وسفاهة رأيه .

صار بهمن كالمملوك في الآداب وحسن السلوك ، وطلب
منه جده أن يرجع هو ورسم الذي ساعه بعدما عرف
بتضرعاته في طلب السلام من اسفنديار قبل المات . فرجع ملكاً
وسُدّة العرش متسلماً . وكان جده من شدة حبه له ،
لا يفارقه ولا يصبر عنه ساعة ، ولا يطيق البعد عنه لحظة .
ولما كان لا بد من المنون ، ولو ساورتنا الظنون .
ولكل شخص نهاية ، كما له بداية . فإن رسم وإن عاش

طويلاً ، فإن له في الممات سبيلاً . وكيف شاءت الظروف أن يقتل على يد أخيه شغاذ (من والده زال بن سام) الذي تربى وحيداً عند ملك كابل بعيداً . فإنه لما وُلِدَ ، اطلع والده على سر الفلك . فعرف المقدّر والمصير الذي لا يتغير . فأرسله عند ملك كابل ليربيه وعلى حُسن السلوك يمضيه . فلما نشأ وترعرع ، ورأى منه ملك كابل أمارات الأبهة والجلال . صاهره ومن ابنته زوجته . ولما رأى أن رستم لا يحفل له وكالغريب يعامله . اتفق مع عمه والد زوجته أن ينقطع عن دفع المال للإيقاع بابن زال . ورسم معه خطة تقضي بأن يشتم أخاه في وجهه وعلى مَسَمَع من صحبه . فينهض هو مؤثباً ومساعدة رستم طالباً . وهكذا كان . فلما وصل رستم ديار كابل ، استقبله ملكها طالباً السماح ، حانياً رأسه كالتمساح . ثم أخذه إلى أرض شاسعة ، للصيد سانحة . فلما ساروا ، وقع رستم ورخشه ومن كان معه في حفرة مليئة بالنصال والحراب . فتمزق جلده ، وتشقق رخشه . وعرف أنها مكيدة من أخيه وملك كابل . فطلب قوسه ونشابهه ليدود عن نفسه السباع قبل أن تطلع روحه . فأعطاه شغاذ ما طلب . فما كان منه إلا أن شدَّ قوسه ضارباً شغاذ ، الذي احتسى وراء شجرة جافة ، فنفذ القوس فيها ونخاطه معها .

فطلعت روحه قبل روح أخويه رستم وزواره .
عرّف فرامرز بن رستم بمصير أبيه . فذهب إلى كابل بجيش كثيف . وأخاط جراح عمه وأبيه ورخشه . ووضع رستم في تابوت عظيم وضع على سرير من الذهب . وأقيمت عليه المآتم في زابل ، حتى لا تكاد تسمع غير صوت النائحات والنادبات . ثم هجم فرامرز من زابل على كابل . فأسر ملكها وأربعين نفساً من أقاربه . ثم ذهب إلى الموضع الذي قُتِل فيه رستم . فعلقه من جلد ظهره على نصل من أنصال تلك الحفرة . وحرق أقاربه وشغاذ ، ونزل قتلاً وذبحاً في أهل كابل . أما والده رستم رودابة فقد شقت عليه الثياب وأمسكت عن الطعام والشراب . وحاولت الانتحار . لكنها عادت وأقلعت ، وبأمر ربها رَضِيَتْ .

الملوك الأربعة

مات كشتاسب بعدما حكم مائة وعشرين سنة . فسلم الحكم قبل مماته إلى حفيده بهمن . جاعلاً له عمه حافظ سره ومشير أمره .

فلما استلم ، وعلى العرش حكم . جمع القواد والأمراء طالباً منهم الموافقة على الثأر من قاتل أبيه ، متخذاً ثأر الأبناء للآباء حجة له . فتشاوروا ثم وافقوا . فخرج بجيش عظيم نحو بلاد زابل . فلما وصل ، لقيه دستان طالباً الأمان والشروع في السلام ، مذكراً إياه بفضائل أولاد زال على ممالك إيران . لكنه ازداد حقداً وتصرف غضباً . فقيّد الشيخ الجليل ووضعته في سجن ظليل . وهجم على قصوره سارقاً من كنوزه . ثم أطلق أيدي أصحابه في

الأسر والنهب في جميع نواحي زابل . فلما جاء فرامرز (ابن رستم) لينجد جده ويخلص ملكه . التطم الجيشان كأنهما أسدان . ثم هبت ريح عاصفة أذرت الرمال في وجوه عسكر فرامرز . فولتوا الأدبار تخلصاً من الغبار . وبقي فرامرز وحده حتى أسير وصلب ومات رشقاً بالسهم . ثم أوقف بهمن أيدي جنوده في أرض زابل بعد تشفع بشوتن ، وأطلق سراح دستان بعدما ندم على سوء فعله وسرعة غضبه . ثم قفل راجعاً إلى إيران . يأمر وينهى ، ويمنع ويبني . ومن آثاره قرية باقية تُعرف بهمينيا .

ثم إنه ولّى ابنته هُمَي الملقبة جهرآزاد ، لما حبلت منه وعن وليده بشرته . أما ولده ساسان فهرب إلى نيسابور وتزوج هناك كاتماً نسبه ، حافظاً سره . ورزق ولداً سماه ساسان أيضاً . ثم صار فقيراً يرعى بين تلك الجبال والشعاب فيقال دو جد الساسانية .

استلمت هُمَي العرش والتاج بعد بهمن الذي حكم ستين سنة . فلما جاءها المخاض . ولدت صبياً قالت إنه مات . واهتمت بأمور ملكها ، وأحوال رعيتها . فساست بالعدل والإحسان والرأفة والأمان . ولما بلغ وليدها ثمانية أشهر وضعت في علبة مملوءة بالجواهر وشدت على عضده جوهرة

عضده . ثم انتقلوا إلى قتال جيش الروم . فانقضَّ داراب كالصقر الباسل والليث الكاسر . وقتل منهم خلقاً كثيراً حتى اضطر ملك الروم إلى طلب السماح ، والتزام دفع الخراج . فبعث رشتواذ رسالة إلى هُمَاي يبشّرها بالانتصار ، ويخبرها بأحوال داراب مرسلًا الجوهرة المذكورة التي وصلته بعد حضور القصّار وزوجته . فلما رأتها ، عرفت الحقيقة . وعلمت أن ذلك الشاب الذي أخذ بقلبها يوم العرض لم يكن إلا ولدها . ففرحت كثيراً بعدما انتظرت طويلاً . وحمدت الله تعالى وشكرته . وفرقت الكنوز على الفقراء والمساكين . ولما وصل ابنها . استقبلته بوعاء مملوء بالياقوت والزبرجد ونثرتهما عليه . ثم أجلسته على عرش من الذهب مُحلّي بالجواهر والقصب . وأعطته التاج ، واعترفت بالإساءة اليه . لكنه ساعها وعن إيذاء نفسها أرجعها . ثم نصبته ملكاً بعدما قصّت قصتها على الأمراء وجميع الأكابر .

جَلَسَ داراب على عرش السلطنة متمتعاً بمظاهر الأبهة . فأطاعه جميع الملوك ، وقدموا اليه الخراج حتى من الهند والروم وغيرها . ثم أمر بشق نهر من بحيرة واقعة تحت جبل عظيم كان يزوره . وبني على ذلك النهر مدينة سماها

لها قيمة . ثم أمرت ، فألقي في الفرات ، حتى وجده قصارٌ كان يغسل الثياب على حافة النهر . فأخذه فرحاً ، وعن حزنه على ولده الميت جعله مرحاً . وانتقل مع زوجته ولقيطه إلى بلدة ثانية بعدما أسماه داراب لأنه وجده في الماء (درآب تعني في الماء) . فنشأ وترعرع وعن مزاولة مهنة أبيه تمنع ، فتعلم الدين والأدب والفروسية ، وفاق أقرانه بوصاية العزة الإلهية . ودخل في عسكر رشتواذ قائد الملكة هُمَاي ، بعدما عرف كيف وُجِد من والدته التي أخذ منها بعض الدراهم . فاشترى بثمنها فرساً وعدة رثة رخيصة .

ارتحل رشتواذ لمحاربة الروم بعدما استعرضت هُمَاي العسكر . فلقت انتباهها منظر داراب وانتقدته على الثياب التي كان يلبسها لأنها لا تليق بفارس مثله . فلما وصلوا أرض الروم . أظلمت السماء وأمطرت . فاخْتَبأ داراب في بيت خراب يكاد يقع . وسمع رشتواذ هاتفاً يأمر البيت الخراب بعدم الانقضاض لأن تحته ملكاً كبيراً ، فتعجب من ذلك واستدعى داراب الذي ما ان خرج حتى وقع البيت على الأرض . أخبر داراب رشتواذ عن أصله ومولده . فأمر بإحضار القصّار وزوجته والجوهرة التي كانت على

منهم تحت راية قائد أصيل وأمير كبير . فأطاعته جميع الأمم من روم وعجم .

في ذلك الوقت توفي قيقوس ملك الروم . فجلس الاسكندر مكان جده ، وأخذ الحكمة من فلاسفته . فحكم بالمعروف حتى يُذكر ، وصرف شعبه عن الفحشاء والأمر المنكر . ولما جاءه رسول دارا لأخذ الخراج ، صرفه ، وإلى ملكه أرجعه . ثم جمَعَ جيوشه وتوجه إلى إيران عن طريق مصر . فتنزل فيها وقاتل مليكها . وانتصر عليه وانضم كل أهل مصر إليه . ثم رحل وخيَّم على حافة الفرات . وعلى الحافة الثانية كان دارا وجنوده الذين خرجوا من اصطخر لمحاربة الاسكندر .

تأهب الجيشان لبدء القتال . فزار الاسكندر دارا متنكراً بزى رسول ، طالباً من ملك إيران السماح لملك الروم بالتجوال في بلاده ، وقصده الوقوف على قوة عدوه وأحوال جيشه . لكن دارا استشبهه ومن عامل خراجهم عرفه ، بعدما أكرمه واستضافه . فلما لحق به كان الاسكندر قد هرب . فقطع الفرات . وبدأوا القتال . وظلوا على تلك الحال حتى غلب الاسكندر وهزَمَ دارا الذي فرَّ وجمَعَ جيشاً كبيراً لمواصلة القتال . فلاقاه الاسكندر وغلبه

داراب كرد . وبني فيها بيت نار ، وأسكنها أصحاب الحرف والصناعات . ثم إنه قاتل رجلاً من العرب خرج إليه بمائة ألف فارس . فنازله وقتله . وأطاعه سائر ملوك العرب . ثم سار إلى بلاد الروم . فنهض إليه من عمورية ملك الروم قيقوس مع أركان دولته وأكابر حضرته ، بجيش عظيم . فتلاقوا في وقعتين كان النصر فيها للإيرانيين الذين قبلوا السلام بعدما اتفق داراب مع ملك الروم على تزويجه ابنته ناهيد . فأرسلها والدها بعدما جهَّزها بأنفس الجواهر وأطيب الأزاهر .

وفي يوم كانت مضطجعة مع زوجها . فتنفست ، فشم من نكهتها رائحة كريهة . فنفرت نفسه منها وابتعد عنها ، وإلى والدها أرجعها بعدما جلب لها الأطباء . فداووها ، ومن الرائحة المزعجة شفوها . ولما جاءت إلى أبيها حاملاً . ولدت صبياً أسمته الاسكندر تيمناً بالدواء الذي شفاهما . فنسبه جده إلى اسمه ، وجعله ولي عهده ، مُعلنًا أنه ابنه .

توفي داراب بعد حكم دام اثني عشرة سنة . وأعطى الحكم قبل مماته إلى ولده دارا ، الذي ما أن استلم وعلى العرش حكم ، حتى تجبَّرَ وعن حكم والده تغير . ففرق أرزاقه على العسكر ، ووضعهم في طوائف ، كل طائفة

في ناووس مُزين كألوان الطاووس ، ووضعهُ على سرير
من ذهب موشى بالديباج والقصب . ثم أمر بنصب
جذعين عند الناووس وصلب اللذين غدرا به حين . وأمر
برجمها ، فرُجِمَا إلى أن ماتا عبرة لمن نظر ، وموعظة
لمن اعتبر .

مرة ثانية وثالثة . فهرب إلى جهرم ، ومن ثم إلى كرمان
تاركاً اصطخر ، مقر ملكه ومستقر عرشه بيد الاسكندر .
وفي كرمان اجتمع دارا بأعوانه ووزرائه فأشاروا عليه بطلب
الأمان ولأُم الجراح . فكتب إلى الاسكندر كتاباً مشحوناً
بالخضوع والاستسلام وطلب السلام . فجاب به الاسكندر
بالملاطفة وعدم المعاتبة مُرجعاً إياه ملكاً على ما كان ،
مُنْفِذاً كما كان في الزمان . لكنه غير رأيه وبدل فكره
وقال : « أصعب من القتل عندي ، أن أشدّ في خدمة
الرومي وسطي » . فراسل ملك الهند «فور» يطلب المؤازرة
وسرعة المساعدة . فهاجمه الاسكندر في كرمان بعد رفضه
السلام ، وانتصر عليه . ففرّ وقتل على الطريق بواسطة
اثنين من أخلص رجاله . طمّعاً برفع قدرهما ، وإشاعة
ذكرهما ، وتوليتهما بعض الأقاليم ، بعد اتصالها بالاسكندر
وإخباره عن مقتل دارا . فلحقه الاسكندر قبل أن يموت
فحاسنه ولطفه ومن حقه أنقذه . فوصاه بمالك إيران
والأهل والأولاد . وسأله أن يتزوج ابنته روشنك . لعله
يرزق ولداً ، يحدد اسم اسفنديار ، ويزين بدين زرادشت
الديار . ويحافظ على خدمة النيران وإقامة مراسم النوروز
والمهرجان . حتى لا تُتمحى آثار كشتاسب ، ولا يزول
رسم لهراسب . فوعده الاسكندر بتنفيذ وصيته . ثم دفنه

الاسكندر

١٠

أصبح ملك الروم ملكاً على إيران وتوابعها . فعامل بالإحسان ، وأشاع الأمن والأمان . وأعفى الجميع عن خراج خمس سنين . ثم نفَّذَ وصية دارا وتزوج روشنك بعد موافقة والدتها . وذهبت أمه ناهيد من عمورية إلى إيران لإحضار ذات الجمال والأبهة والدلال . فتزوجها وأخذ يبني الديار المهدامة . فبنى هراة ومرو وسمرقند .

ثم إنه عزم على قصد ملك من ملوك الهند يسمى كيدا . فلما قصده راسله وطلبه . فأجابه بتقديم بنته ، وثلاث عجائب من عنده . فأرسل الاسكندر رُسْله لاستيضاح ما وصله . فجاؤوه بالجواب اليقين . ثم أرسل يطلب البنت مع الجام والطبيب والحكيم .

١٢٢

أما البنت فقد بُهرََ بِجمالها وحسنها ودلالها . والجام جرَّبه وشدة ما أعجبه . فقد جلس مع ندمائه يشربون منه ويستزيدون . فلم يفرغ ولم ينضب . فلما استوضح عنه ، أُجيبَ بأنه يجذب بخاصيته الماء من الفلك ، ويستدره من الهواء بحيث لا تدركه حاسة نظر الانسان . أما الطبيب فقد فحصه وبأدويته أقنعه . فركَّب له دواءً يعافيه ومن كل الأمراض يشفيه . ونصحهُ بالاعتدال في الطعام ، وبتخفيف النوم مع النساء للمحافظة على دوام الشباب ، وحُسن الإنجاب . أما الحكيم فمن صنائعه أدرك أنه عليم . فقد أمر بِجام مملوء بالسم والإبر ، ذوبها حتى صارا بيضة حديد ، فصقلها لتبدو مرآة من جديد ، ثم أعطاهما إلى الاسكندر الذي دفنها ، وتحت الأرض خباها . فندبت وصدت . ثم أخذها من جديد ، وصقلها بحيث صار جوهرها كالبطل الصنديد ، لا يصدأ ولا يهرأ . فلما سأله الاسكندر عن المعنى أجابه قائلاً : « السم يتغلغل في الدم كما تفعل الإبر في اللحم . وبيضة الحديد كقلبك الشديد . لا يدرك المعاني الدقيقة والرموز الخفية لكثرة ما أصابه من خطوب ووقائع . أما المرآة وردك إياها صدئة ، فهي إشارة إلى أن قلبك كان كالمرآة ، لكنه صدىء من كثرة إراقة الدماء . وأنا بصقلي إياها ثانية ، إنما أشير إلى مساعدتك وتنقية قلبك » .

١٢٣

فاستحسن الاسكندر قوله ، وقبل الهدايا وأعفى الكيدا من الخراج . ثم ترك ميلاب وتوجه إلى قنوج وعليها ملك يُعرف بفور . فأمره بالطاعة بدون مشاورة . فبعث فور إليه كتاباً يؤنبه ، وعلى سفاهة رسالته يوبّخه . فما كان من الاسكندر إلا أن جمع جيشاً عظيماً من الروم والمصريين واسباد ايران وتوجه لمحاربته في طريق وعرة المسالك أثارت حفيظة جنوده . فنهروهم وزجرهم وعن غيبتهم أرجعهم . فشوا معه خاضعين وإلى قنوج متوجهين . فلما وصلوا وتلاقوا ، أشار حكماء وفلاسفة الاسكندر عليه بأن يصنع صور خيل من حديد . محشوة بالنفط ، إذا اقتربت منها خراطيم فيلة فور ، أشعلوا النفط فيها فتهرب . وهكذا كان . ثم تقابل الفريقان ودعا الاسكندر فور لمبارزته حسماً لإراقة الدماء وزهق الأرواح . فتبارزا وتصاولا وكاد فور أن ينتصر لو لم يلتفت إلى الوراء . فعاجله الاسكندر بضربة أنزلته قتيلاً . ثم ولّى شورك أحد قواده ، ممالك الهند بعدما أحسن معاملة العسكر راداً اليهم سلاحهم . وأكمل طريقه إلى بيت الله الحرام متوقفاً في القادسية .

بلغ خبر وصول الاسكندر إلى نصر بن قتيب . وكان ممن يتزين به الحرم . فقام إليه راكباً ، ومع الفرسان

مستقبلاً . فلاقاهم الاسكندر بالتعظيم والتبجيل . ولما سأله عن حاكم مدينته ، أجاب بأنه خزاعة الذي ملك الديار بعد القتل والدمار ، وأن الحكم يجب أن يكون لآل اسماعيل الذي هو منهم . فقام إليه الاسكندر ، وانتزع الملك من بين يديه وقرره في ذرية اسماعيل . ثم طاف حول الكعبة ، واهباً أمواله مُهدياً أرزاقه .

ومن الكعبة إلى جدة ثم إلى مصر بطريق البحر . فاستقبله ملكها قيطون ، وعن ذكر قيذافة ملكة الأندلس أخذوا يتحدثون ، التي أرسلت مصورها لرسم الاسكندر في جميع أحواله وفي حله وترحاله . فلما طالبها بدفع الخراج ، ماطلت وامتنعت . فسار إليها بجيشه ، فوصل إلى مدينة من مَدنها ، فحاربها وافتتحها ، ووضع شهر كبير حاكماً عليها ، فأسر ابن قيذافة قيذروش الذي جاء للزواج من ابنة حاكم تلك المدينة . فلما عرف الاسكندر بذلك ، طلب من وزيره يبطقون ، أن يأخذ دوره ويجلس مكانه على انه الاسكندر . وإذا مثّل قيذروش أمامه ، تشفع هو له ، وإلى والدته أرسله .

سار الاسكندر مع قيذروش على أنه يبطقون ، إلى قيذافة ملكة الأندلس . فلما وصل وفي قصرها الرائع مثل .

شكرته ووهبته وعرفته من الرسوم التي عندها بعدما أطلعها على رسالة الاسكندر في دفع المقدّر . فلما أخبرته أنها عرفته ، ندم على وضع نفسه بين أشداق الثعبان . لكنها طمأنته وعن أمر ابنها طينوش نصحته . فلما حضر الجميع وأخبرهم بيطقون برسالة الاسكندر . وقف طينوش كالمدوغ . فطرده والدته بعدما أنبته . ثم ردت به بناء على نصيحة الاسكندر الذي وعده بتسليمه الاسكندر يدأ بيد . فاستحسن كلامه وقام معه . فساروا إلى المعسكر الذي في أنحاء الاسكندر . فلما وصلوا ، تقدمه بيطقون لإبلاغ الاسكندر الذي رجع مع فرسانه لمحاصرة طينوش . فلما حاصروه وعلى حقيقة الاسكندر أنظروه . فزع واقفاً وعلى حياته خائفاً . لكن الإسكندر طمأنه وفي مجلسه أجلسه . فأكلوا وشربوا وبهدايا قيافة الثمينة تنعموا ، التي استحسنت دفع الحراج بعد التشاور والتداول .

ارتحل الاسكندر من الأندلس مُتعباً ، وبين كل أقطار العالم متنقلاً . فوصل إلى مدينة البراهمة . فدخلها بعدما راسل أهلها . وهم قوم حفاة عراة ، ليس عندهم سوى الصبر والعلم . يعيشون على أكل الحشيش وعلى النبات الهشيش فحاورهم بأمور الحياة وسر الممات . وعرض عليهم

هداياها . فما قبلوها بل رفضوها . ثم ارتحل ، وإلى بحر غريب وصل . كانت أسماكها وحيواناته طعاماً لرجال متنقبين كالنساء لا يعرفون العربية ولا الفهلوية . ولما أراد الركوب إلى جبل في وسط البحر ، منعه فلاسفته . فأرسل جنده في زورق صغير ، ما أن وصل ، حتى ابتلعه الجبل . فكان حوتاً عظيماً كالجبل حجاً وشكلاً

ومن مياه ذلك البحر . انتقل إلى مياه سامة في غدير عظيم . فعبرها إلى ساحل بحر آخر ، ظهرت من جوانب يابسته خنازير وأفاعي وعقارب وسباع . فتقاتلوا واقتتلوا حتى انتقلوا إلى أرض الحبشة . فأنزلوا غربانها بالرمح بعدما تصادموا كالرياح . ولما جنّ الليل ، قتلوا كركدناً بالسهام ، كأنه من الفيئة العظام . ثم ارتحلوا إلى أرض عراة وصلوا . فلما رأوا الاسكندر ، قاتلوه بالحجارة . فواقعهم أصحاب الاسكندر وقتلوهم حتى لم يبق منهم إلا القليل .

ومن هناك انتقل لقتال ثعبان على قمة جبل ، كان يأكل كل يوم خمسة ثيران . فأمر الاسكندر بمثلها محشوة سمياً ونفطاً . فلما التهمها ، احترق بلهبها . فانفلق وتشقق وقطع بالسيوف .

وحيداً . فحاوروه بكلام الحكماء وبلسان العقلاء . ودعوه
للصعود وحيداً لرؤية إسرافيل عليه السلام . فلما رآه صاح
به داعياً إياه إلى المسير وبطريقه يكون التيسير . فلما رجعوا
هتف هاتف من الجبل الأسود الذي كان هناك وقال :
« مَنْ يَحْمِلُ مِنْ حِجَارَةِ هَذَا الْمَكَانِ يَنْدَمُ ، وَمَنْ لَا يَحْمِلُ
مِنْهَا فَهُوَ أَيْضاً يَنْدَمُ . » فحمل منها بعضهم وأعرض عنها
بعضهم . فلما خرجوا من تلك الظلمات رأوا تلك الحجارة
جواهر ويواقيت . فندم من حمل حيث لم يستكثر . وندم
من لم يحمل ، حيث لم يحمل كثيراً . أما الخضر فوصل
إلى عين الحياة فشرب واغتسل وفاز بالمطلوب .

ومن الظلمات إلى مدينة في المشرق وصلها مكرماً ،
وعن عجائب أهلها سائلاً ، فقالوا له : « هم قوم أقزام
أفعالهم كالضرغام . لهم أوصاف الحيوان وخصائص الإنسان .
يأكلون حيوان البحر ونبات الأرض فلا يشبعون . فإذا
خلصتنا من ياجوج وماجوج الذين هم وراء الجبل ، كنا
لك من الشاكرين ، وبسيرتك نظل ذاكرين » . فأمر بسد
عظيم يفصل الجبل عن المدينة ، حائطه من النحاس والرصاص
والجص والحطب والحجارة المتينة . بُني على شكل طبقات
تخللها الكبريت والفحم . فلما انتهوا ، نفخوا فيه . فارتفع

ومن قمة ذلك الجبل إلى رأس جبل آخر . حيث صعد
لرؤية شيخ ميت على سرير من ذهب مسجى على ديباج ،
على رأسه تاج مرصع بالجواهر . فلما اقترب سمع هاتفاً
يقول : « أيها الملك ! قد جهدت زماناً طويلاً ، وأفنيت
من الملوك كثيراً . وقد دنا وقتك وحن موتك » . فعظم
عليه ذلك واصفرّ لونه .

ومن الجبل إلى هروم ، حيث راسل سكانها البنات
بأشكالهن العجيبات . حيث لم يُخلق للواحدة منهن إلا ثدي
واحد هو الأيمن فحسب . وهنّ في الأيسر كالرجال .
فسمحن له بالمشاهدة والمرور توكياً للشرور . فذهب متفرجاً
بعد أن قطع مدينة فيها أناس سود الوجوه ، هُدل الشفاه .
تتوقد النار من أحداقهم وتخرج من أفواههم . فاستقبلوه
وبفيلهم خدموه .

ومن مدينة البنات إلى أرض الجنّات . حيث تغرب
الشمس في عين ماء كبيرة . مَنْ شرب من مائها خلدَ
ولم يمِت . فانتقى للمهمة صاحب الأئمة الخضر . فساروا
وراءه فريقين على ظهور المهر . وتوغلوا في طريق الظلمات .
فضلّ من كان مع الاسكندر حيث أفضت بهم الطريق إلى
جبل شاهق تسكنه الطيور البواسق . وتقدم الاسكندر

الدخان في السماء . وتمكنت النار فيه حتى انتهى وعلى الأرض هوى . فتخلصوا من شر ياجوج وماجوج بعدما حرقوا وهلكوا .

ومن تلك المدينة إلى مدينة أخرى ، وصلها بعد مسيرة شهر . وصعد إلى جبل لازوردي ، عليه بيت مغلف بالجواهر وبأحسن الذخائر . فلما دخله ليرى عجائبه حذر وأندر وعن قلعة عدد أيامه في الدنيا أخبر . فخاف وارتعد . ثم ارتحل إلى عجيبة أخرى في مدينة صغيرة . فلما دخلها أخبروه عن شجرة يتكلم نصفها بالنهار بصوت ذكر ، ونصفها الثاني بالليل بصوت أنثى . فقصدتها مع الترجان . فأخبرته الأنثى كما أخبره الذكر عن كثرة تجواله وقلعة أيامه . فانصرف ذاهلاً ونحو الصين ذاهباً . فلما اقترب منها ، كاتب ملكها بغير وزاره كعادته متكرراً بزي رسول . فأبلغه رسالة الاسكندر ، مهدداً بحافل العسكر . فقبل بغير الشروط وأرسله محملاً بالنقود . فأقام شهراً ثم رحل إلى بلاد السند . فقاتل ملكها بنداها وكسره . وسار إلى نيم روز ثم إلى اليمن . وقبيل الوصول إلى بابل على ساحل بحر مقابل . خدمه جماعة من لحافي الاذن . (بستر كوش) طعامهم السمك وأبنيتهم من عظام السمك . ومن الساحل

توجه إلى بابل . حيث قرب أجله وقلت أيامه فخاف على الروم من بعده أن يقتلوا على أيدي الإيرانيين . فأراد قتلهم والانهاء من أمرهم . فأشار عليه ارسطاطاليس بعدم التقتيل لأنه يورث العداوة ، ويحصد الحسرة والندامة ، وقال له : « قسم بلادك إلى ممالك : وأعط كل ملك ملكه ، على شرط أن لا يطاول حدّه . آنذاك تشغلهم ، وعن أمور القتال تصرفهم » . ففعل بما أشار . وكانت ملوك الطوائف .

ثم إنه وصل بابل ليلة مولد أعجب الخلائق . له أوصاف الحيوان وبعض الانسان . فتطير منه ، وفلاسفته سأل عنه . فأخبروه كما هتف الهاتف وتكلمت الشجرة . فاهتم واغتم ومرض وكتب رسالة إلى والدته يخبرها فيها بدنو أجله وقرب ساعته . طالباً الحفاظ على اسم الاسكندر وفي كل أعماله وأقواله يذكر . وأوصاها بزوجته روشناك وابنة ملك الهند كيد . وذكرها بعدم البكاء والتمثل بسير العطاء . وأمرها بتفريق رزقه على المساكين وأمواله على المحتاجين داعياً إليها إلى التصبر واتباع أوامر الله . ثم مات بعد أن خدمه العسكر . فدُفِنَ كما طلب بتابوت مملوء بالعسل ، بعد أن غُسلَ بالماورد . وغُمِرَ

بالكافور ودفنوه في تراب الاسكندرية ، المدينة التي بناها بعدما ودّعه أرسطاطاليس ، وانتحبت عليه أمه . ومضى الى مضاجعة التراب وهو في عز الشباب . وانتهى عهده كبرق ومض وطرف غمض بعدما حكم أربع عشرة سنة .

١١

الساسانيون

« يذكر القاريء في موضع مر ذكره أن ابن بهمن وشقيق هماي كان يُدعى ساسان وقد هرب إلى خارج البلاد وتزوج كاتماً سره ونسبه ورزق ولداً سمّاه ساسان الذي سمّى أولاد أولاده أيضاً ساسان» .

أما ساسان المنتسب إلى بهمن بن اسفنديار ، فقد جاء إلى اصطخر ليرعى الإبل عند حاكمها بابك الذي استدعاه يوماً بعدما رأى في منامه حُلماً فُسر له بأن ساسان أو من يتفرع عنه سيحكم إيران . فلما أدخله وعن سره استخلفه ، أخبره ساسان أنه ينتسب إلى بهمن بن اسفنديار بن كشتاسب . فأجلسه في قصره ، وزوجه من ابنته التي ولدت ابناً سمّاه اردشير بابكان .

١٣٢

١٣٣

نشأ اردشير وكبر ، وبشجاعته طار الخبر . فلما سمع به اردوان ملك إيران ، طلبه ليرى شجاعته . فلما جاء إلى اردوان ، أخذه هذا الأخير مع أولاده الأربعة إلى رحلة صيد . فاصطادوا ، وعلى غزال رماه اردشير وقتله وادّعى ابن اردوان قتله ، تنافسوا . فقال له اردشير : « إن هذه الصحراء مملأى بالغزلان . فارم آخر إن كنت صادقاً . فغضب اردوان منه ، وعينه حارس شرف على اصطبله . فرضي بالأمر وسكن بيتاً تحت القصر . فعشقه جارية كانت هناك تُدعى الجلنار ، وأخذت تردد عليه .

مات بابك في اصطخر ، فعيّن اردوان ابنة بهمن حاكماً عليها . وهرب اردشير بعد سماعه التفسير الذي أخبرته عنه الجلنار ، مفاده أن اردوان طلب من المنجمين والعلماء أن يعرفوا من سيتولى بعده . فأخبروه بأنه واحد من المنتسبين إلى عُرف كريم يجده في الهاربين من قصره . فلما أدرك الحال ، وجد الجلنار قد هربت مع اردشير على فرسين بعدما أخذت ما أرادت من الجواهر والذهب . فكتب كتاباً إلى ولده في اصطخر يحذّره من الخطر ويخبره أنه لم يستطع اللحاق بأردشير بعدما ركب وراءه واقتفى أثره . فلما استلم الرسالة ، تنبه للأمر وتلظى كالجمر ، واستعد

لمحاربة اردشير الذي جمع صحبه ومؤيدي حقه . ونوجه بهم إلى اصطخر كبرى الممالك بين ملوك الطوائف . فتحاربوا طويلاً إلى أن هُزم بهمن ، وهرب مع عدد من جنوده . دخل اردشير اصطخر وسلم أموره إلى بطل كان معه يدعى يياك بعدما استأمنه وعلى أسراره استخلفه . ثم استعد لقتال اردوان الذي قدّم إليه من الري . فتلقاه ، واتصلت الحرب بينهما أربعين يوماً متواليّة ، انتصر على أثرها اردشير وقتل اردوان بعدما أسر اثنين من أولاده . وفر الآخرون إلى بلاد الهند . ثم ارتحل إلى الري وتزوج من ابنة اردوان لتدله على كثر والدها . ثم عاد إلى اصطخر وبني مدينة جميلة دعاها بأردشير خره ، فأقام فيها بعدما قتل الأكراد الذين ظهروا بأطراف البلاد .

في ناحية أخرى من بلاد فارس ، وفي مدينة على ساحل البحر تُسمى كخاران . كان لرجل يُسمى هفتواذ (له سبعة صبيان) بنت واحدة ، تذهب مع صاحباتها إلى سفح جبل لغزل القطن ونسجه .

ذات صباح كانت تأكل تفاحة وقعت في حجرها . فوجدت في وسطها دودة . فأخذتها ووضعتها في وعاءٍ كان معها . ثم غزلت كثيراً ذلك النهار على اسم الدودة .

وظلت تعمل فيما بعد هي وأهلها حتى اغتنوا وفاقوا الأمير
ثروة . فتصدى لقاتلهم . فقاتله هفتواذ وانتصر عليه وانتقل
الى قلعة محصنة مبنية على صخور ضخمة ، ونقل الدودة
من وعائها الى حجرة خاصة بها حيث صارت كالفيل
كبراً ، وضخامة ، واستفاض خبرها بين الناس فسميت
تلك الناحية كرمان (كرم بالفارسية : الدودة . والجمع
كرمان) .

علم اردشير بنجر هفتواذ وعدم انقياده لسلالة كيقباز .
فقصده محارباً ورجع منهزماً ، بعدما أضاق هفتواذ عليه
الحصار ، فولى الأدبار . وعلى الطريق تعرف بصديق ،
أخذه الى منزله وعرفه بصاحبه . فأصبحوا كلهم أصدقاء .
فلما عرفا أنه اردشير ، ووراء ثأره من هفتواذ يسير .
أشارا عليه بالحيلة لأن الدودة مسكونة ومن عمل الشيطان
ملعون . ثم جمع جيشه لمقاتلة مهرك صاحب كهرم الذي
استولى على اردشيرخره في غيابه . فلحقه ثم قتله ،
وقتل كل من ينتسب اليه ، ثم سار الى قلعة هفتواذ لاجئاً
الى الحيلة ، كما فعل اسفنديار بقلعة أرجاسب . فلما دخل
وعزّم ، والنار أشعل ، هجم قائده لما رأى دخان النار .
فدخل مع جنوده القلعة وقتلوا هفتواذ وولده الأكبر سابور .

أما الدودة فقد قدّموا لها طعاماً من الحديد مُذاباً مع
الرصاص والنحاس . فلما أكلته انشَقَّ حلقها وانتهى أمرها .
ثم ارتحل الى فارس فشهروز فطيسفون مسلماً زمام الإقليم
والقلعة اللذين احتلها الى الصديقين الفلاحين اللذين أمّنها .

ولما كان اردشير متزوجاً من ابنة اردوان . فقد أمر
بطمرها تخلصاً من غدرها بعدما حاولت أن تسمه بتحريض
من أخيها بهمن الهارب ، ومن وجه اردشير شاردا . فلما
استشفعته وبحملها منه استرحمته . رفض أن يساعدها والى
عهدته يرجعها . فأخذها وزيره ، ووضعها في قصره آمراً
زوجته بخدمتها والسهر على راحتها ، بعدما طهر نفسه
لثلاث سنين سمعته ، ويُهتِك شرفه . فلما ولدت صبياً .
أخذه ، وعن العيون أبعده حتى كبر وأصبح عمره سبع
سنين .

ذات يوم دخل الوزير على اردشير فأبصره مهموماً
وعلى عرشه مزعوجاً ، لأنه لم يخلف ولداً يرثه ، وعلى
العرش والتاج يجلسه . فانتهازها الوزير فرصة وتكلم بعد
طلب الأمان . فأخبره بقصة ابنه ، الذي كان ينوي قتل
أمه . ففرح اردشير وأمر بنثر الدنانير . وأمر الوزير بوضع
ولده في جرم غفير ليرى إذا كان بإمكانه أن يعرفه ، ومن

بين الغلمان ينظره . فعرفه دون دليل ، لكن من الحنين الذي طفق قلبه . فأخذه وعلمه الآداب الشاهنشاهية والمراسم السلطانية حتى فضج وكبر ، وفي حروب والده انتصر . ولما أراد والده أن يزوجه راسلَ عالم الهند وملكها كيد ، سائلاً إياه عن الاستقرار والسلام ، فأجابه قائلاً : « لا يتم ذلك إلا بمرادك . فإن زوجت ولدك الذي من نسلِك ، الى نسلِ مهرك ، عمّ الأمن والاستقرار ، وانصرف الناس الى البناء والعمار » . فأرسل اردشير طالباً بنت مهرك التي هربت حين قتل والدها . فلم يجدها لأنها التجأت الى ضيعة بعيدة واختفت . وبينما كان ذات يوم مع ولده سابور يتصيد . سرّحاً وفي الصحراء سارا . فعطش سابور واتجه الى ضيعة كثيرة الماء والشجر . ثم لقي جارياً جميلة كالقمر . سقته وأعجبه . فلما سألها عن اسمها . حلفتها واستأتمته بأنها ابنة مهرك وطليبة الملك اردشير . فتزوجها سرّاً ، ولو علم والده لأخذها له جهرًا . فرزق صبيًا سماه اورمزد الذي ما أن أصبح عمره ثمانى سنوات حتى اكتشف اردشير أمره وذاع سره . فبينما كان يلعب مع أقرانه بالطابة ، وقعت قرب جده ، فما تجاسر أحد من الاقتراب اليه إلا اورمزد . فتعجب اردشير منه ، وأخذ

يسأله . فعرف أنه ابن سابور من ابنة مهرك . ففرح هاتفاً ، وابنه مهنتاً . ثم فرق الأموال على الفقراء وزين بيت النار بالديباج وألوان الثياب . وادرك أنه منذ ثمانى سنين ، من حيث ولد اورمزد . لم يقدر جيشاً ولم يخض حرباً . بل ابتعد عن الأسر والتقييد ، تماماً كما قال له كيد .

ثم إن اردشير عرف حسن الإدارة والتدبير . فنظّم الجيش ورتبه ، وديوان الجند أسسه . وجعل لكل جندي راتباً ، ولكل ألف جندي قائداً . فمن كان شجاعاً أدخله . ومن كان جباناً حوّلّه الى الحرف والأشغال . فانتظمت ممالكه وكبر عسكره . وخصص للمظلومين مستمعاً ، وللرسل قصرًا ومركزاً ، واختار من قواده من كان عالماً وعاقلاً . فأرسله الى مباحثة أعدائه للدخول في خراجه . ونبّهه الى حسن المحادثة وآداب المشاورة . فإن أبوا أعذرهم وأنذرهم وأكابر قواده لمحاربتهم أرسلهم . فعظمت أمور شعبه . وانتظمت أحوال ملكه . وأسلم الروح بعدما ملك اثنتين وأربعين سنة ، مُخلفاً وراءه مُدناً باهرة ، وعهداً ميموناً وذكرًا طيباً .

استلم سابور ملك اردشير ، وعلى سيرة أبيه كان

يسير . فساس بالتعاون أساساً للتضامن . وحارب أهل قينذافه لما امتنعوا عن أداء الخراج . فتوجه اليهم وأسر بطلهم برانوس . فتضرعوا اليه بالسلام ، ورجاه قيصر الروم طالباً الأمان ، باعثاً اليه أجمل الهدايا وكل السبايا التي سباها في حروبه . وكان اردشير يستشير أسيره برانوس في أعماله واعداء إياه بفك أسره إن هو بنى له قنطرة فوق وادٍ كثير الماء بمحلة تُدعى بتستر . فجدَّ واجتهد وأمر الصناع ببناء القنطرة فلما انتهت ، سلّمه إياها . ففك أسره وحلَّ قيده . ثم اتجه سابور الى محاصرة قلعة الحضرمي لما سمع من تطرف صاحبها وتكبر قائدها الضيزن بن معاوية . فحاصرها أربع سنين دون أن يقتحمها لقوة سورها وتعاضد جنودها من قضاة وبني العبد وغيرهم من قبائل العرب . لكنه عاد ودخلها بمساعدة ابنة قائدها النضيرة بنت الضيزن . فإنه لما رآها ورأته ، عشقها وعشقتة وعلى سر القلعة دلته . فلما دخلها بعد تداعي سورها تزوجها وأكرمها وعلى نسائه رفعها . وظلَّ على عدله وقوّته حتى وافته المنية بعد حكم دام ثلاثين سنة . فاستلم ابنه اوزمرد اوهرمز مكانه ثم بهرام بن هرمرز ، فبهرام بن بهرام ، فبهرام بن بهرام أيضاً . ثم نرسی بن بهرام . وأخيراً هرمرز بن نرسی .

كلهم حكموا لفترات قصيرة ومددٍ يسيرة . فاتصف حكمهم بالعدل والرفقة والإدارة الحسنة .

لما مات هرمرز بن نرسی ، ولم يكن له ولدٌ يخلفه . اجتمع أشرف مملكته ، وأعيان دولته . فنظروا في جواربه ، فوجدوا واحدةً حُبلى منه . فنصّبوا ولدها بعد وضعها ، ملكاً على إيران بعد تسميته سابور . ووضعوا شهرويه مؤكلاً ومدبراً ريثما ينشأ الصغير ويكبر . فلما بلغ خمس سنين ، ورأى اللذاهبين والراجعين قد ازدحوا على جسر فوق دجلة . أمر ببناء جسر آخر يكون للذاهبين ، والأول للراجعين . وظلَّ يترعع وعلى آداب الملوكية ينظر ويتسمع ، حتى كبر وخرج لقتال ملك من آل غسان من العرب . كان قد هجم ، ومدينة طيسفون اقتحم . فنهبا وسرق ذخائرها وأسر نساءها وبينهن عمه لسابور . فرزق منها بتناً دعاها مالكة . فلما حاربه سابور ، حاصره بقلعة في اليمن وقطع عليه المرور . واستطاع بعد حصار شهر أن يدخلها ويقتل ملكها بعد مساعدة ابنة عمته من الداخل ، التي راسلها وأعجب بحسن خصائلها . فعشقتة وعشقتها . وأمر بعد الاستيلاء على القلعة ، بقطع اليدين والكتفين عن الرقبة . فلقبته العرب من أجل ذلك « ذا الأكتاف » .

ثم إنه أراد أن يطوف وبلاد الروم يشوف . فتنكر
بزي تاجر ومثل في حضرة قيصر الروم لتقديم هداياه وبذل
عطاياه . فاستقبله قيصر الذي تنصّر ، ودعاه إلى طعامه
وشرابه ، ثم قيّده وكبّله وفي جوف جلد حمار وضعه ،
بعدما عرفه بواسطة أحد خدامه الإيرانيين . ثم سلّمه إلى خادمة
إيرانية كانت عند زوجته ، لتحفظه وتعني به . وهجم
قيصر على ممالك فارس مستغنياً فرصة غياب سابور .
فاقتحم منازلها وقتل أهلها وأجبر من نجا منها على الدخول
في دين المسيح . لكن سابور استطاع أن يهرب من
أسره بمساعدة الجارية التي ركبت معه على حصان أسرجه .
فلما وصلا إلى خورستان ، وعلى باب بستاني أخذوا يدقان .
فتح لهما وفي ضيافته أكرمهما . ونزل في خدمتهما بأحسن
طعام وأطيب شراب . ولما عرفه سابور بنفسه وسأله عن
ملكه . تحسّر على الإيرانيين الذين أصبحوا مكبّلين ، وفي
دين قيصر خادمين . فأمره بالذهاب إلى قائد قواده ،
وإعلامه عن حاله لجمع العسكر واقتحام المعسكر . ففعل
البستاني بما أمر ، وأتاه مع الجواسيس بأخبار قيصر الذي
يقضي كل أوقاته في الصيد واللهو بمعسكر في مدينة طيسفون .
فلما تجمع معه ثلاثة آلاف فارس . هجم على معسكر
قيصر بغتة ، كالشمس البارزة من بين الغيوم الداكنة

ونزل قتلاً بالسيوف والرماح . فأسر قيصر وأعوانه .
وأرسل إلى الأمصار يعلمهم بالأخبار . ويعلن عودة السلطان
لإشاعة العدل والأمان . ثم كرّم البستاني وجعله أعظم
أهل زمانه . وأمر بإحضار قيصر . وأخذ يحاسبه على ما
بدر منه . جاعلاً إياه يدفع الثمن بأسره وهلاك عسكره ،
وخراب بلده الذي هجم عليه ، ونازل يانس شقيق قيصر .
فهزّمه وانتصر عليه . فلما رأت الروم ما فعله سابور وتوا
برانوس بالتكلم عنهم ، ومباحثة عدوهم بالسلام والدخول
في الحراج . فأمر سابور برانوس بالمجيء إلى حضرته
مع فلاسفته وأساقفته . فجاؤوا مذلولين ولعدله متضرّعين .
فأمرهم بعدما أحسن وفادتهم بالتزام ثلاثة آلاف دينار
كل سنة ، والتخلي عن مدينة نصيبين التي عاد ودخلها
بعد تعنت أهلها ورفضهم الانقياد لحكم سابور . فلما تمّ
له كل ذلك ، استقر ملكه وبنى مدنه ، ومنها مدينة
نيسابور ومدينة خاصة لأسرى الروم . ومات بعد أن صلب
ماني المذوّر من أرض الصين الذي ظهر مدّعياً النبوة .
فلما حقق في دعوته وبشأن أمره . وجد دعوته كاذبة
ومن الحقيقة خالية . ثم جاء أردشير بتنصيب من سابور
الذي قبل أن يموت ، جعل ابنه الصغير سابور وليّ عهده

ومستلم عرشه . وجعل أخاه اردشير مدبراً ولولي العهد حارساً. فلما استلم الصغير بعد موت عمه اردشير . ساس بتنظيم الإدارة وحسن السياسة ، ومات بعد أن وقع عليه عمود خيمته التي كان يأكل ويشرب تحتها في رحلة صيد. ولما لم يكن له خلف ، بل خمس بنات وأخ يُدعى يزدجرد. سلمه ممالكة مُوصياً إياه بشعبه وأهوال خزائنه .

١٢

بهرام جور وقصصه

جلس يزدجرد الملقب بالأثيم واستلم ، وبالظلم والجور حكم . فعظمت أفعاله وكبرت أعماله . فخاف الناس من شره ، ولم يتجاسروا في اتخاذ مشورته . واستوى عنده العالم والجاهل ، والصالح والطالح . ولما استكمل من ملكه سبع سنين ولد له ابن سماه بهرام . فخاف العلماء عليه من ظلم أبيه واستفحال أمره . فأشاروا على الوالد بتربية القادم في إحدى الممالك المجاورة . فاجتمع عنده الملوك . فاختار المنذر بن النعمان ملك العرب ، ووالده النعمان ليكونا كفيلين والآداب والفضائل مُعلّمين . فأخذ المنذر إلى بلاد اليمن ووضعته تحت إشراف نساء أكابر العرب والعجم . فأرضعته ورببته ولم يفظمته إلا

ABDEEN

بعد أربع سنين . ولما بلغ سبع سنين . طلب من المنذر تعليمه الفروسية والآداب السلطانية . فتعجب من ذكائه وشدة بأسه ، وأرسل في طلب العلماء لتعليمه كالنجباء . فاجتمع عنده أربعة منهم . الأول للخط والكتابة ، والثاني للصيد والطرده ، والثالث للرمية واللعب ، والرابع لسرد حياة العظماء والتمثيل بالحكماء . فلما بلغ الثامنة عشرة . صرفهم النعمان بعدما خلع عليهم أموالاً باهرة وحللاً فاخرة . واختار بهرام من كل خيل العرب فرسين ، كالريح الهوجاء في مسابقة العنقاء . ثم اختار وصيفتين دون أن يتخذهما زوجتين ، لأن النساء كما قال ، راحة للعقول وتسلية للقلوب . لكنه عاد وقتل واحدة منهما لأنها استخفت بقوته وسرعة رمحه ونشابهه في رحلة صيد قاما بها لاصطياد الغزلان في أرض النعمان .

وكان النعمان يرسم صوراً لبهرام في جميع أحواله وأفعاله ويرسلها إلى والده يزدجرد . فلما رآها هذا الأخير ، أعجبَ ببيهائه وقوة رجولته ، فطلبه للزيارة والبقاء للخدمة . فجاء مع النعمان بعد توديع المنذر . ونزل في خدمة والده جاعلاً إياه ساعده الأيمن ومستشاره الأفضل . لكنه تأخر مرة في الخدمة ، وأبطأ في المهمة .

فحبسه والده والزمه بيته . فضاق صبره وطلب عودته إلى المنذر ، فعاد إلى أحسن مما كان عليه .

ثم إن الملك أراد أن يعرف أخبار الفلك . فسأل المنجمين عن طول حياته وقرب أجله . فجابوه منذرين وعن عين السوء (عين ماء) مُبعدين . لأنه إذا اقترب منها سيموت للحال . وهكذا كان . فإنه لما مرض أشاروا عليه بالاغتسال بمياه تلك العين . فذهب محملاً والشفاء طالباً . فلما اغتسل شفي للحال : لكن جواداً أشهب خرج من الماء ، وركله ركلة أوقعته أرضاً ، وللحال ميتاً . ثم اختفى الجواد من حيث أتى . فلما مات ، اجتمع أكابر الفرس وعلمائهم لتقرير الخلف بعد السلف . فأبعدوا بهرام من قائمة الحكّام ، واضعين مكانه خسرو من الشجرة الكيانية والعزة السلطانية . فثار بهرام طالباً مساعدة النعمان . فساعده وبجنوده أمدّه . فسار إلى أطراف فارس يعيث فيها خراباً ويدمرها تدميراً . فأرسلوا إليه رسولا يطلب الصلح ، والكف عن الأذى . وظلت الرسل فيما بينهم حتى قرروا بأن يوضع التاج على العرش . وبشد قائمتي العرش إلى سبعين ضارين مجوعين . فإن تمكن بهرام أو خسرو من التاج يكون له الملك والحكم . فاقرب بهرام وقتل السبعين

وأخذ التاج ووضعه على رأسه . فخرّ خسرو راکعاً
والعرش مسلماً .

استلم بهرام وحكم ، وفي الحضرة السلطانية ارتسم .
فعامل بالحسنى والمعروف كل من ساعده على الوقوف
لاستلام الرئاسة وممارسة السياسة . فسامح من وقف ضده .
وعفى عمن لم يدفع رَسمه . وشكر النعمان وأمراء العرب
ووهبهم هداياه وآلاف التُّحف . وبثَّ رُسُلَه لإرجاع
من شملهم جور أبيه . فعادوا آمينين وبعده شاكرين .
وسمع مرة بنجر السقاء واليهودي . فأحب أن يمتحنهم
وباستضافته يجربهم . فقصد السقاء ذات مساء طالباً المأوى
شاكياً البلوى من ظلم الملك . فاستقبله وبمنزله أنزله ،
وقدّم له الطعام والشراب بعد أن رهن الثياب . ولما أراد
أن يرتحل ، طلب منه السقاء أن يبقى ، وفي بيته يأوى
إن أراد أن يتخاص من ظلم الملك . فبقي عنده مدة
أسبوعين ، بعد أن أوقعه في دين ثمن الطعام والشراب
الذي قدّمه للضيف . ثم ارتحل قاصداً اليهودي . فلما
حضر إلى بابه . امتنع عن ضيافته . فلما ألحَّ ، استضافه
مُكرهاً ، وفي ركن صغير من منزله أعطاه منزلاً . واشترط
عليه إن هو أراد الإيواء لليلة ، أن يمتنع عن الطعام

والشراب ، وينام في الثياب التي عليه . ثم أخذ يأكل
ويشرب خلصةً مخافة أن يدعو ضيفه مُبْتَتاً بخله ، نافياً
يُسْرَه .

فلما كان الصباح قام بهرام وكنّس زبل خيله كما
وعد اليهودي . ثم ارتحل إلى قصره ، وأرسل في طلب
السقاء واليهودي . فصادر أموال الأخير ووهبها للأول .
فأصبح اليهودي من أخسر الخاسرين وفي عداد الفقراء
والمحتاجين .

ثم إن بهرام حرّم الحمرة لأنها مضرة . فقد قتلت
رجلاً جاءه بهدايا من الفاكهة . فدعاه للشراب وشربا
كثيراً . فلما ارتحل ، شعر بها كالنصل . فبظت عيناه ،
وارتعت يده . ومات من حمها في جوفه وسريانها في
دمه . فلما علم بهرام ، حرّمها ومن مجالسه أخرجها .
ثم عاد وحللها بعد أن عرف فعلها . فقد جعلت عريساً
لما شرب كثيراً ، أن يركب سبعاً ، ظاناً إياه فرساً .
فتعجب بهرام منه ، وحلل فعله الذي هو من تأثير الحمرة .
وكان مرة في مصيده يتسلى . فاعترضه فلاح وأخبره
عما لاح . فإنه لما كان يسقي والأرض يروي . نزلت الماء
في ثقب وغارت فيه . فسمع لصوتها خريراً كأنها في سبيل .

المرأة وزوجها . قبلاً الأرض بين يديه ، واعتذرا عند
رجليه على ضيق حالهما وصغر بيتهما . فأحسن اليهما ،
ووهب لهما تلك الضيعة . وأوصاهما بحسن الضيافة والمحافظة
على الصداقة .

ثم انه خرج أيضاً للصيد في موكب عظيم تحدثت عنه
الأقاليم . وكان معه طير جارح يُسمى طغرى ، هدية
من خاقان الصين . فطيره ووراء الطيور أرسله . فحلّق
في السماء وطار مع الهواء حتى غاب عن نظره . فلحقه
مع ركه قاصدين جليبه . فوصلوا إلى قصر منيف في
ضواحي الريف . فقام صاحب القصر وكان يسمى برزين ،
ودعاه إلى ضيافته ، دالاً إياه على طغرى الذي علق في
شجرة . فأرسل بهرام غلمانه وجلبوا طغرى . وكان لبرزين
ثلاث بنات . واحدة مغنية والثانية راقصة والثالثة جنكية
(تدق على الرباب) ، تُقن بالضيافة وحسن الوفادة .
فأعجب بهرام بهن ، وطلب الزواج منهن . فقبل والدهن .
فأخذهن بهرام بعد أن أجلسهن على عروش من الذهب
محلّة بالقصب .

وأظهر بهرام مرة شجاعة فائقة في اصطيد الحيوانات
الضارية في صحراء خبر فاصطاد سباعاً خرجت من بطنه

فأمر بهرام بالحفر ، فوصلوا إلى شبه قبر ، مُحلّي بالذهب ،
وموشى بالقصب . ومحروساً بأصنام من الياقوت ، ووضعت
على التابوت باسم جمشيد . ففرق هذا الكتز على الفقراء
والمحتاجين وفتح أبواب كنوزه على العسكر . لأن المال
إن وُجد فسيبيله إلى الصّرف وتحسين أمور الرعية . لا إلى
الحنن والدفن ووضعها في كفن .

وكان مرةً يتصيد وحيداً . فرأى ثعباناً عجيباً غريباً .
كالنساء شكلاً والرجال قوة . فقتله وشقّ بطنه . فإذا
برجل شاب في جوفه كان قد ابتلعه . فبكى له وهرب
من سم الثعبان ، الذي دَوّخه ومن مكانه أبعده . فوصل
إلى دارة في ضيعة ، على بابها امرأة . فطلب المبيت ونزلت
هي في الترتيب . فحضرت له مكاناً للنوم وطعاماً للأكل .
فأكل وشبع وأخذ يسألها مع زوجها عن أحوال مَلِكِهَا .
فأجابته قائلة : « إنه عادل ، وفي بعض الأمور ظالم .
فإنه مثلاً يأخذ على هذا البستان خمسة دراهم في كل سنة .
فاستقلّ بهرام القيمة ونام ناوياً زيادته نسبةً لقلته . فلما
أصبح ، عاد وأصلح ما نوى عليه ، لما وجد أن البقرة
التي عند المرأة لم تعد تحلب لأن الملك نام وهو ظالم .
فلما رضي ، عادت البقرة وأدرت بلبن غزير . ولما عرفته

لبوة . فتلقها بالسيف ونزل كالضيف على أهل مدينتي
خبر وبرقويه ، الذين ما أن علموا بقدومه حتى خرجوا
مسرورين ، وبضاعتهم ومصنوعاتهم مُبيعين . فرحَّب بهم
وقبل هداياهم وأمر بإسقاط الخراج عن المدينتين . ثم
تحرك لصيد اليعافير فقتلها كأنها عصافير .

وانتقل بعد ذلك إلى بغداد ثم إلى اصطخر ، لاهياً مع
نسائه وجواريه ، قاضياً وقته بصيد حُمُر الوحوش فسمي
ببهرام جور (كور تعني حمار الوحش) لكثرة ما قتل
منها ومن غيرها .

ولما كانت رحلات صيد بهرام كثيرة ومغانمها عظيمة .
فقد اتَّجَهَ مرة صوب أراضٍ واسعة لاصطياد النور
الجارحة . فلما انصرف النهار واشتدَّت الشمس اللاهية
كأنها نارٌ حارقة . تحولَ مع صحبه إلى ضيعة غنَّاء كأنها
الصحراء وسعاً والجنات منظرأ . فلا دخلها لم يستقبله
حاكمها ولا أهلها ، كأنهم ليسوا تحت طاعته ولا داخل
ملكه فاغتاظ ، وللأمر احتاط . ولأنه لا يحب العدوان ،
ويؤثر عليه الأمان . فقد أمر رئيس كهنته الذي كان معه
بتحويلها إلى أرض بور وحفر غور ، دون المساس بأهلها
وإهدار حقها . فظن رئيس الكهنة للحيلة . وأشاع أن

الملك تخلى عن حكمه لهذه الناحية . وأمر كل رجل وامرأة
بحكم نفسه وتنفيذ رأيه . فاستمسك كل شخص برأيه
وأراد فرض نفسه . فعمت الفوضى وكثرت البلوى ،
وقتلوا بعضهم بعضاً . فخربت الضيعة وصارت كالمقبرة ،
تسرح فيها الأشباح بعدما هجرتها الأرواح .

وكعادته في رحلات الصيد ، رجع بهرام بعد سنة ،
ومرَّ من تلك الناحية . فلما رآها دوراً خراب وعزاً في
التراب . حزن على أطلالها بعد عزها ، وأمر بإعادة بنائها ،
فتوجه كاهنه منتقلاً من خربة إلى خربة . فوجد رجلاً عجوزاً
لم يرحل أمام بيت لم يسلم . فأخبره بنية الملك في إعادة
تشيد الضيعة . وأوكله أن يتصرف ، وعلى غيره لا
يتعرف ، طالباً منه إطاعة الملك دون التفرد بالرأي .
فامتثل الرجل لأمره ، وعمل برأيه . فأعاد الحياة إلى
الخراب والمياه إلى الانسياب . وعرف من بهرام أنه متى
استولى حاكمين على محلة ، وأكثر من رأين على بلدة .
كانت النتيجة الخراب في مدة كأنها السراب .

وبعد مدة خرج بهرام للصيد . فلما أمسى مع حاشيته
على سفح جبل . رأى من بعيد ناراً وهجاء في وسط
الصحراء . فتقدم للاستطلاع دون ارتياع . فرأى أربع
بنات باسمه مغنيات وبجمله منشدات . فبهر بجبالهن وبحسن

أصواتهن . ثم سأل عن سبب النار التي في وسط الدار . فأجبنه أنها لوالدهن الذي ذهب ليصطاد وتأخر في العودة . فأشعلن النار ونزلن منشدات حتى يرى مكانهن ويسمع صوتهن فيستهدي للحال . فلما عاد الوالد ، فوجيء بوجود بهرام . فغفر خدّه في التراب بعد أن غير الثياب . ورحب به في داره بين بناته . فنزل بهرام ضيفاً ويد البنات خاطباً . فلم يصدق الوالد طلب بهرام الذي عاود السؤال مؤكداً إنه لا ينبغي مالا ، ولا ينقص جاهاً . فرضي الوالد . وتزوج بهرام البنات واضعاً والدهن حاكماً على المنطقة ، متصرفاً في أمورها ، متدبراً في شؤونها .

ثم إن بهرام التهي في صيده ، وانصرف عن إدارة شؤون ملكه . فكثرت الطامعون ومنهم الخاقان ملك الترك والصين . فجهز جيشاً عظيماً واتجه به نحو إيران . فما أن سمع به قواد مهراب حتى نهوه ، وعن الصيد منعه . لكنه ما امتنع وفي الصيد اتسع . وحضر في السر جيشاً صغيراً من أكابر قواده وأشجع فرسانه . واتجه به نحو مرو لمحاربة الخاقان . ووضع أخاه نرسي بن يزدجرد مكانه ، مسلماً إياه العرش والتاج .

في هذه الأثناء كان سكان إيران قد ضجّوا من بهرام

وهروبه من المسؤوليات . فكتبوا إلى الخاقان بعد امتناع نرسي ، يعلمونه بالطاعة وقبول الزيادة التي فرضت على الخراج . ففرح الخاقان واستكبر على أمراء الترك والصين تنمراً . فقبل طاعتهم ، وذهب للصيد منتظراً وصول الخراج من إيران .

أما بهرام الذي كان قد شارف مرو ورجعت جواسيسه من استقصاء الأخبار . فقد هجم على الخاقان بمن معه من الفرسان . فنزل قتلاً وأسرأ وعليهم منتصراً . ثم دخل مرو وحرّرها من أمراء الترك والصين وتابع سيره حتى توغل في أطراف ممالك توران . فاعلاً بأهلها كما فعل بالخاقان . فاستأمنوا إليه ، ودفعوا الخراج زيادة عما كان وانصرف حتى وصل قربر . فبنى هناك داراً ، جعلها واسطة بين ممالك الفرس والترك . وجعل جيحون فيصلاً بين المملكتين . ثم كتب إلى نرسي يعلمه بالنصر ويهتسه بالظفر . ويتمنى له لو كان معه ليشاهد أسر الخاقان ورفع راية ملك إيران . ثم توجه نحو اصطخر مُحملاًً بخراب ممالك توران حتى وصل إلى دار ملكه ومكان عِزه . فأنفق الأموال في بناء القناطر والخانات . ووزع منها على الفقراء والأيتام والأرامل والعسكر . ثم أمر بإحضار تاج

الحاقان ، فقلعوا جواهره ورضعوا بها حيطان بيت النار. ثم توجه إلى طيسفون. فتلقاه نرسي وأكابر إيران بنثر الدنانير ورش الأزاهير . فجلسوا للطعام والشراب بعدما عفا عن أهل إيران لمراسلتهم الحاقان . ثم كتب إلى جميع الممالك بالإعفاء من الخراج لمدة سبع سنين ، شكراً لما من الله به عليه حين أظفره بالرغم من ضعفه وقلة عدده وعدده ، بعدو مثل الحاقان في قوة شوكته وكثرة عدده وعدده . ووضع نرسي ملكاً على خراسان ، واستقبل رسول قيصر الذي جاء عنده يوم مسيره لمحاربة الحاقان . فطال مقامه وحن جوابه : فأدخله إلى قصره وأجلسه بقربه . فاستمع إليه وأعجب بعلمه . ولما كانت زيارته لإبلاغ السلام وسؤال العلماء عن سبعة أشياء . فقد جمع مهرباب الفلاسفة والحكماء . وتناقشوا مع رسول قيصر عن أمور الحياة وأسرار البقاء . ففرح منهم الرسول ، وأدرك أنه لا خوف من المجهول . ثم قام وانصرف مُحملاً بالهدايا والعطايا بعدما بقي عدة أيام في قصر الكرم كأنه في إرام . ثم نظر في أمر عسكره ومملكه ، التي قسمها إلى أقاليم وولايات . ووضع على كل واحدة منها بطلاً وعالمًا . وأمرهم بالعدل والإنصاف في معاملة الرعية متجنبين الأذية . لأن الناس ينظرون ومثل حكاهم يسرون . وأمر شعبه

بالإخلاص والتفاني في إعمار المباني حتى يعم السلام ويتنصر الإنسان وتكبر ممالك إيران . وأطنب في تذكيرهم ونصحهم مذكراً إياهم بالثواب والعقاب وعدم التعرض للفقراء والأغنياء سواء كانوا أقوياء أم ضعفاء . وأمرهم بإفاضة الإحسان وإشاعة الأمان . فعمّ العز عهده واستقام ملكه . ودخل الملوك تحت طاعته ما عدا شنكل ملك الهند الذي أخذ يعيث في البلاد من حدود الصين إلى أرض الهند ، مُتمنعاً عن دفع الخراج والدخول تحت راية السلطان . فكتب إليه كتاباً افتتحه بالدعوة إلى الله والتضرع إليه . واختتمه بطلب تأدية الخراج وعدم إشراع الأسنه والرماح ضد الرسول الذي يحمل الرسول . ثم ختمه وكتب عليه « من بهرام ملك العالم إلى شنكل قائد جيوش الهند من أرض قنوج إلى حد السند » . ثم وضعه في جيبه وخرج سراً إليه ، على أنه ذاهب للصيد . فلما وصل وفي حضرة شنكل مثل انبهر بروعة قصره وندرة جواهره . وأجلسه شنكل بجانبه على أنه رسول بهرام . ثم قرأ الكتاب الذي يهدده بالعقاب . فاحتجّ واهتزّ وعلى الرسول أراد أن ينقضّ فهدأه بهرام (الرسول) ودعاه إلى انتقاء مائة فارس من آساد فرسانه وأعيان قواده ، فإن تمكنوا منه

ومن فرسانه الذين معه ، امتنعوا عن الحراج . وإن لم يتمكنوا دفعوا الحراج وأمنوا جانب بهرام . فنزل على طلبه ، وأمر لساعته بالطعام والشراب . فلما انتهى . أمر شنكل بمصارعين . فأخذا يتصارعان ولا يغلبان . فقام بهرام من شدة سكره وفقد وعيه يصارع الرجلين . فغلبها ، وعلى الأرض طرحهما . فتعجب شنكل منه ، ودعا له .

ولما كان اليوم الثاني . نزل إلى المباراة في زي المباهاة . فرمى خصمه بنشابة رمته أرضاً وقتلته قتلاً . فارتاب شنكل منه وشكَّ بقوته التي لا يمكن أن تكون إلا للملوك . فلما صارحه وإلى بهرام نسبه . رفض قواه زاعماً إنه اجنبي يعمل في خدمة بهرام . فخلا شنكل بوزيره وساوره بشكواه طالباً منه إغراء الرسول بالبقاء على طول في خدمة شنكل ومحاربة بهرام . فلما حادثه الوزير ، رفض الطلب بكل أدب وطلب الإذن بالانصراف . فلم يأذن له شنكل إلا إذا قتل الكركدن والثعبان اللذين استفحل شرهما وعظم أمرهما في بلاد الهند . فنزل عند طلبه رغم تحذير أصحابه وقتل الحيوانين الهائلين . فهللوا له وهتفوا بحياته . ولما أراد الرحيل زار مجلس شنكل . فلاقاه الأخير وحده وغرَّره بتزوجه ابنته . فرضي وبقي مُختاراً سبينود التي أحبته

حباً جمياً ، وبكت من فرط شغفها دمعاً . ثم لأنها طاوعته ورضيت بالفرار معه . ومهدت له الإدبار ليلة زيارة والدها للأصنام ، لأنهم لا يعبدون النار . إذ ذهبت إلى والدها قائلة : « لأن المكان يبعد عن المدينة مسافة بعيدة ، وزوجي متوَعك الصحة ويشعر برعشة . فأرجو له السماح بعدم الذهاب لثلاث تسوء صحته ويتغير لونه » . فقبل والدها عذرها ورجته ألا يلحقها . ثم ذهبت إلى زوجها بعد سفر والدها ، وركبت معه يلحقهم صحبه . فلما وصلوا إلى الشاطئ ، وكان بهرام قد اتفق مع أصحاب الزوارق بعد أن وعدهم ومناهم . فركبوا وأبحروا فيها .

لما علم شنكل بخبر الهروب . رجع مُسرِعاً عن طريق الأزقة والدروب حتى وصل إلى الشاطئ واستقل زورقاً من الزوارق . فلما رآه بهرام خلفه ، نصحه بالعودة إن هو أراد السلامة متجنباً المحاربة . مذكراً إياه بقوته وشدة بطشه . فأخذ شنكل يتحايل وبكثرة فضائله على بهرام يتساءل . ثم لعن ابنته التي هي معه . فما كان من بهرام إلا أن هبَّ واقفاً وسره كاشفاً ، قائلاً له : « ما لك تعيرني ، وهل عار في أن يراجع الإنسان وطنه ، ويعاود أهله وسكنه ؟ إلا أني شاهنشاه إيران ، ولست ترى مني

أنها تكفيه لمدة ثلاث وعشرين سنة . فأوقف الخراج عن الناس والدنيا ، وسأل ثقاته في إخباره عن الأحداث التي تحصل في الأمصار . فأخبروه أنه لما أوقف الخراج ، ارتفعت الكلف من الناس . فاستغنوا فطغوا فأخذوا في سفك الدماء . فلما علم بذلك أمر بعودة الخراج لمدة ستة أشهر في السنة ومعاقبة كل من يعمل جريمة ولا يخلد إلى السكينة . ثم سأل أعوانه عن الأخبار في كل الأقطار . فأجابوه بأن الناس انصرفوا وعن الزرع والحصد بطلوا . فأمرهم بتلزييمهم الزراعة وإعطاء كل من يحتاج إلى إعانة حتى ولو كانت من دار السلطان وبيت المال . ثم عاد وسألهم بعد مدة . فأجابوه بأن الأحوال على انتظام والشعب على وئام . لكن الأغنياء يلبسون أكاليل الورد والريحان ، ويشربون على أصوات القيان وأغاريد المسمعات الحسان . ومن عداهم من المقلدين يشربون بلا غناء وهم من ذلك في تعب وعناء . فكتب إلى عمه يطالبه بانتخاب ألفي نفس من الهنود الذكور والإناث ، من المخصوصين بحسن الصوت وجودة الصنعة في الغناء . فلما وصلوا إلى أرض إيران . اشتغلوا مدة بأمان ، ثم تفرقوا في الأمصار ، يقتلون

بعد هذا إلا الجميل والإحسان . ولأخذنك والدأ ، ولا أكلتك خراجاً أبداً . وأصير ابنتك سيدة النساء في تلك الأقطار والمخصوصة فيها بالشرف والفخار . فخرّ شنكل ساجداً ، ثم أسرع معانقاً . وجلسوا للطعام والشراب ، وتعاهدوا على المعاملة كالأصحاب . ثم ودّع كل واحد منهما صاحبه وأخذ في طريقه . فلما وصل بهرام إلى إيران ، استقبل بالزيينات . وعرض له العسكر الذي أخذ يكبر . وجلس على عرشه في مستقر سكنه ، ينهى ويأمر ويعطي ويمنع . وبعد مدة من الزمان ، زاره عمه ملك الهند . فاستقبله عند النهروان من أراضي إيران . وأجلسه في قصره ونزل في خدمته . فتعجب شنكل من حُسن تربيته وعز سلطانه . وزار ابنته في مجاسها . فرآها معتصبة بالتاج على عرش العاج . فسُرّ بسعادتها وبهناها بزوجها . وبقي عند صهره مدة من الزمن ذهب بعدها إلى بلاده محملاً بالهدايا وآلاف العطايا له ولصحبه الذين معه .

ثم أن بهرام ، أشاع الأمن والأمان وأفاض العدل والإحسان . فعامل الرعية بحسن السياسة وتنظيم الرئاسة . وأحصى الأموال والذخائر الموجوده في الخزائن ، فوجد

وينهبون ومن صوب إلى صوب يرحلون ، وهم الذين
عُرفوا فيما بعد بالغَجَر . وبقي بهرام على عرشه إلى أن
فرغت الخزائن كما قال له الخازن . فسلم ابنه الحكم
ومات دون أن يدري به أحد . وظلَّ ذكره وفعله على
لسان الناس إلى الأبد .

١٣

والد كسرى

استلم يزدجرد مكان بهرام . فكان مثله يؤثر الإحسان
ويحب الأمان ، ومات بعد حكم دام ثماني عشرة سنة
مُوصياً العرش والتاج لولده الأصغر دون الأكبر ، لأنه
موصوف بالرفق والسكون والثبات والعقل . فاستلم الأصغر
هرمز وغار الأكبر فيروز الذي كان في سجستان يوم وفاة
أبيه . فطلب مساعدة ملك الهياطلة الذي أمده بجيش كبير
لقضاء مقاطعتي ترمذ و اشجرد . فتقاتل الأخوان في ظاهر
الري ، وغلب الأكبر الأصغر وأخذ مكانه بعدما حله من
أسره وسلمه قيادة جيشه . ونوى أن يجعل إيران جنة من
العمران ، لكن القحط الذي أصاب البلاد لمدة سبع سنوات ،
خفف الأنهار وضروع الأبقار . فأوقف الحجاج عن الناس

ABDEEN

وصرف من خزائن الدولة . وهدد بخراب المدن وقتل الناس إن هو عرف بموت أحد من الجوع . فالغني يصرف على الفقير حتى يتيسر التدبير .

ولما دخلت السنة الثامنة . نزلت الأمطار وفاضت الأنهار ، وخرج الناس للاستسقاء فرحين ، وبتزول الديمة مهلين . ورجع فيروز إلى مشاريعه . فبنى مدينة باسمه واخرى باسم باذان فيرون قرب الري . وتأهب لمحاربة ملك الترك غير راض بالقسمة بين المملكتين ، وهي التي وضعها أجداده . فارتحل عن إيران واضعاً مكانه ابنه بلاش . ثم ترأس مع خوش نواز ملك الترك ، فأخذ الأخير يهدته وبنصبيه يقنعه . لكنه ما اقتنع وبتهديدات ابن الخاقان ما ارتدع . فتقابلا والحرب تناوشا . ثم هجما فوق فيروز مع ولده وأخيه وقواده في حفرة كان قد أعدّها ابن الخاقان . فماتوا وما سلم منهم إلا قبّاذ فأخذه خوش نواز وقيده وفي سجن وضعه ثم حمل على الإيرانيين . فقتل وأسر وغنم وعاد ظافراً . لكنه سرعان ما ندم لتسرعه في محاربة الخصم ، إذ أن سوفزاي حاكم زابلستان كان قد كتب لبلاش بن فيروز يخبره بموت أبيه وبأسر أخيه ، طالباً السماح في معاودة القتال وإطلاق السراح . فسمح له بلاش ملك

إيران . فتوجّه بجيش عظيم قاصداً قصد ملك الترك والصين . وأوفد إليه رسولاً ذكياً ينذره وبالقتال يُعلمه ، وتبعه فعليه يُحمّله . ثم قطع جيحون وأخذ يقتل كالمجنون أخذاً بثأر فيروز وبقتلى الإيرانيين . فما كان من خشنواذ (خوش نواز) إلا أن وافق على طلب الصلح الذي نصّ على إطلاق قبّاذ وقائد العسكر أردشير ، وجعل جيحون فاصلاً بين المملكتين ، ورد خزائن وأموال فيروز . فاتفقوا وعن القتال وقفوا . وعاد قبّاذ إلى أخيه بلاش وسرعان ما استلم الحكم منه لضعف إدارته واضطراب حكمه .

آثر قبّاذ نشر السلام والجنوح إلى العدل . فبنى وعمّر وبعده وحسن حكمه بشّر ، حتى أصبحت سنة ثلاثاً وعشرين سنة .

أما سوفزاي الذي حكم شيراز ودانت له ممالك فارس ، أخذ يدلّله وبفضائله في إجلاس قبّاذ على العرش يؤول . فاغتنمها الحاسدون فرصة ، ومن قلب قبّاذ اقتلعوا المحبة . فأرسل له جيشاً بقيادة سابور الرازي بعدما صالحه وعلى فرق جيشه نصّبه . فتوجّه إليه طالباً توثيق يديه وإغلال رجله . فلما وصل وبأمر قبّاذ أمر . نزل سوفزاي تحت أمره وإطاعة ملكه . فجاء إلى قبّاذ الذي حبسه ومن ثم

عذبّه . لكن أصحاب الرأي رجوه ، وبإطلاق سوفزاي
استشاروه . فما كان منه إلا أن تعنت وبهلاك سوفزاي
تمسك . فقام عليه الشعب وخاعوه ولابن سوفزاي سلّموه .
ووضعوا مكانه أخاه جاماسب . لكنه عاد واستلم حكمه
بمساعدة ملك الهياطلة وابن سوفزاي المسمّى بزرمهر الذي
لم يقتله ، بل أكرمه وخدمه وبحسن الأخلاق غمره . فأطلق
سراحه وتوجّه معه إلى ملك الهياطلة . فترلا قبل الوصول
في بيت دهقان مشهور بالأصول في منطقة الأهواز . وكان
له بنت جميلة تفوق الحسنات حلاوةً وحيلة . فتزوجها
قُبّاذ وتوجّه طالباً المساعدة من ملك الهياطلة . فساعده
وعلى أهل بيته نصره . فاستلم الحكم من جاماسب دون
أن يُحاسب . وأخذ يربي ابنه كسرى المولود من بنت
الدهقان ، على المحبة والإيمان . ثم رتبّ أمور إيران وبني
بيوتاً كثيرة للنار في بلاد الروم التي غزاها ثم حكمها .
فاستتب حكمه واستقر عهده إلى أن حصل في بلاده مجاعة
ألزمته التروي والاحتكام الكلي إلى رجل كان قد دخل
خدمته واشتهر بفصاحة لسانه وغزارة عقله ، وهو مِزْدَك
الذي أشاع الاستيلاء على خزائن الأغنياء في وقت المجاعة .
فعمّت الفوضى وكثرت البلوى والسرقة . فتدمر قُبّاذ للأمر ،
وأحضر مِزْدَك للتشاور . فأقنعه هذا الأخير بصواب فعله

وسداد رأيه ، لأن الجائع كالملدوغ من سم الحية . فإن
أعطي له الترياق شفي . وكذلك الجائع إن وجد الطعام
فيسرقه . فتعجب قُبّاذ من رأيه وجعله مستشار أمره .
فعلا شأنه بين الناس ، ودخلت تحت إمرته الآلاف .
فانتشرت تعاليمه . وخالف الأنبياء . وأنشأ لنفسه ديناً
جديداً عُرف بالمزدكية قوامه الإباحة ، خصوصاً إباحة المال
والنساء ، لأنهما سبب كل علة وأصل كل ضربة تنزل
بالإنسان . فإن أشيعاً قُمعت الأخلاق الشيطانية والشهوات
النفسية مثل الغيرة والحقد والغضب والفقير .

وكان مِزْدَك يعرف قيمة نفسه وعلو شأنه عند قُبّاذ .
فاجتمع به مرة وأطلعه على عدم دخول ابنه كسرى في
دينه . فما كان منه إلا أن طلبه ، وفي دين مِزْدَك أراد
أن يُدخله . فاستمهله هذا الأخير وأجابه بعدم التغيير ،
إلا بعد أن يستشير علماءه وكهّانَه . فاستشارهم وذهب
معهم إلى حضرة قُبّاذ . فتجادلوا وتناظروا مع مِزْدَك
قائلين : « أيها الرجل ، قد أتيت بدين ضلّلت فيه
العابدين ، فأشاعتك للآل والنساء ، تستلزم الاحتكام للعلماء
لاختلاط أنسابهم وعدم معرفة أحوالهم . فالوالد لا يعرف
ولده . والولد لا يعرف والده ولا يُعرف الكبير من الصغير

والوضيع من الشريف . وإذا مات الانسان لا يدري من يرث طارفه وتالده ! وإذا استوا ، فمن يبقى للرياسة ويترشح للسياسة ؟ » . وظلوا على مناظرتهم ، حتى بينوا جهله وسفتهوا رأيه . فتاب قبّاذ ورجع إلى دين زرادشت ، وسلم مزديك وأعوانه إلى كسرى . فأخذهم وطمرهم في التراب رأساً على عقب . فلما رأهم مزديك غشي عليه ومات بعد أن صلبَ ورُشِقَ بالسهم . واستلم كسرى مكان قبّاذ الذي نجح من جهله وضلالة عقله . ففرّق الأموال ، وبنى بيوت النار تكفيراً عن خطيئته وكُبر سيئته ، ومات بعد أن عاش ثمانين سنة .

١٤

كسرى أنوشروان

كان كسرى يُلقب بـ «أنوشروان» أي النفس السعيدة . وكان لقبه يوافق عهده . فلما استلم فاق أجداده في بذل الكرم وتوطيد الحكم . وقسم ممالك إيران ورتبها ، ونظم زرعها واستوفى ضريبتها بعد قسمة عادلة نالت الجميع . ففاقت شهرته وذاع صيته وانتشر عدله بين الخلائق حتى دانت له كل الملوك من الشرق إلى الغرب . وفي عهده ولد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه رتب العسكر وسلم زمام قيادته إلى رجل عاقل يسمّى بابك . وأمر ببناء قصر شاهق ، ليشرق منه على الفرسان وأشجع الشجعان . فلما تولى أمره بابك . طلب

حضور كل الكبار من الفرسان وغير الفرسان أكثر من مرة . ثم كان يصرفهم بعد ذلك . فلما علم كسرى بالأمر . لبس درعه ، وحمل سيفه ، وركب سرجه ، وغطى وجهه ، ومرّ أمام بابك عارضاً نفسه بأشجع الحركات . فتعجب بابك من أمره وزاد من مرتبه . فضحك كسرى للأمر وأقر لبابك بالمعرفة وطول العمر . فقرّبته لنفسه وزاد من أعطياته . وحثه على طريق الاستقامة وأخذ الأمور بالتروي والمهادنة .

وأراد كسرى أن يطوف في أنحاء ممالكه لينظر في أحوال رعيته . فخرج مع عساكره إلى جهة خراسان . فعبّر على جرجان ثم سارية وآمل . وتوقف في أرض خضراء يكثر فيها العشب والماء . فسره المنظر لروعته وعدوبة هوائه . ولما أراد أن يقيم ، ومجلسه في تلك الناحية يستديم . حذّره أعوانه وكبار قواده من هجمات الأتراك على هذا المكان ، لأنه الممر الوحيد لهم إلى إيران . فأمر بسد الطريق بسور عظيم حصّنه وبوّبه وبأبراج طوقه ليأمن المنام لسكان ذلك المكان . ثم ركب البحر إلى ممالك الان الذين أطاعوه وبهداياهم أتخفوه . فأكرمهم وأحسن اليهم . ثم أدب أهل كرقجان من بلاد الجبل لشرهم وسوء خلقهم . فأطاعوه

بعد أن أفنى الكثير منهم . ووضع عليهم قائداً من قواده . وعاد إلى المدائن حيث لاقى المنذر عامله على بلاد العرب . فاحتفى الأخير فيه بعد أن غار عامل قيصر خالد بن جبلة على بلاد المنذر . فاحتدم كسرى وأرسل يهدد قيصر الروم ويدعوه إلى الاستيقاظ من الغرور وتقدير عواقب الأمور . فبعث له الأخير رسالة يحطّ فيها من قدره ومن مكانة سلطنته . فسار اليه بعد الاجتماع بوزرائه وأصحاب رأيه . فوصل إلى أذربيجان حيث دخل بيت النار . ففرّق الأموال ونصح العباد . وتابع سيره حتى وصل إلى سوراب فدكّ سورها الشاهق بالحجارة والمجائق ، ودخلها عاملاً السيف برقاب أهلها . وأكمل طريقه وأخذ قلعتين حصينتين هما عرائش الروم وقالينيوس بعد أن قاتل قيصر وغلبه غلبة قضت على جنوده وآلات حربه . وظلّ سائراً حتى وصل أنطاكية . فحارب أهلها الذين رفضوا الطاعة . وظلّ على ذلك ثلاثة أيام حتى افتتحها ومن كنوزها وخزائن قيصر أفرغها . وأخذ أهلها أسرى ووضعهم في مدينة تشبه أنطاكية بناها خصيصاً لهم قرب المدائن . ثم فاوض رسول قيصر الذي جاء طالباً السلام وإحلال الأمان . فوافق على أن يدفع له خراج كل سنة ملء عشرة من جلود البقر ذهباً ،

وتابع طريقه إلى الشام فالأردن بعد أن نصب على أنطاكية الجديدة نصرانياً من الأهواز يُدعى شيرويه .

وكان لكسرى زوجة نصرانية حملت منه ولداً سماه نوشزاد . فلما نشأ وكبر . مال إلى النصرانية دون الزرادشتية . وخرج بثلاثين ألف فارس من جنديسابور التي هي مقر حكمه ومكان نشأته ، لمحاربة والده كسرى لما سمع بمرضه وشدة وطأته عليه ، داعياً بشعار قيصر واتباع دين المسيح . فعرف والي المدائن وراسل كسرى معلماً إياه بخروج ابنه عن طاعته . فطلب منه قيصر أن يجهز جيشه لمحاربة ولده وتأديبه إذا لزم الأمر . داعياً إياه إلى إراقة الدماء في جيش الأعداء . وإذا صادقه ولده دعاه ألا يرحمه ، فالقتل إذا لزم وعدم السماح إذا ندم . فتوجه والي المدائن مع جيشه إلى جنديسابور ، ولاقى نوشزاد وأصابه بالنشاب . فرجع يبكي ويثن وإلى والدته يحن . طالباً منها التسييح ودفنه على دين المسيح . ثم تنفس وخرجت روحه . فدفنوه كما طلب .

واتصل بكسرى في ذلك الوقت الحكيم المشهور والغلام المغمور بزرجمهر . فقد كان غلاماً يعمل في خدمة صاحب دكان للتنجيم . وكان وزير كسرى قد قصد صاحب

الدكان ليسأله تفسير منام رآه كسرى ، أعياء المنجمين تفسيره والفلكيين تحليله . لكن صاحب الدكان ما عرف . وبحضرة كسرى ما شرف . فعرف بزرجمهر تفسير المنام ، ولم يرضَ بقوله إلا لصاحب الأمان كسرى أنو شروان . فتوجه مع الوزير ليرى كيف يكون التفسير . وبينما هما على الطريق ، تعباً ، فاستراحا تحت شجرة مورقة الظلال عُمرها أجيال . فنام بزرجمهر تحتها ، ونزلت منها حية شمته ولم تلسعه . فتعجب الوزير للأمر ، وأخبر كسرى ببزرجمهر . فاستقبله كسرى وفسر له المنام الذي أعياء الحكام . فاتصل به وجعله من علمائه حتى استطاع بلسانه وخصب عقله من أن يصير كبير العلماء وأعظم الأمراء . وكان كسرى يحبه وعلى غيره يؤثره . فكان إذا اجتمع ، بحضور غيره ما اقتنع . فهو المحدث والحكيم والمفضل بين الجميع . فلسانه لا يفتأ يتكلم إلا عن العقل والصبر والانتباه للأمر ، حتى أصبح الملك لا يستريح إلا بسماع بدائع حكمه وروائع كلمه . فأفاض عليه النعم لما قاله من حكم . وأعطاه في ليلة ما مقداره أربعمائة ألف درهم .

وكما جرى لبزرجمهر كذلك جرى للوزير مهبوذ الذي

بين الحاجب والوزير . فأحضر زروان وذكر حديث الألبان . فتعنت في كلامه مُحدثاً بسرّه . فسجنه الملك وبعث في طلب اليهودي الذي ما أن جاء ، قصّ القصة على الجلساء وأكابر العلماء . فأمر الملك بصلبه مع حاجبه . فصُلِبَا ورُشِقَا بالسهام قصاصاً لفعلةتهما . أما كسرى فقد ازداد ندماً ، وبحث عَمَّن وُجِدَ حياً من عائلة الوزير فوجد ابنته وبعض رجاله . فأكرمهم وأحسن اليهم وفرّق عطاياهم على الفقراء ثائباً على فعله وتسرع عقله .

ظلّ كسرى ينشر الرحمة وينظر في أمور الرعية . ففاض عدله واشتهر اسمه في إيران وتعداها إلى توران . فسمع به الخاقان وبأفعاله العظام . فأحبّ أن يتقرب منه ويسأل عنه . فبعث إليه مع الرسول أرسلاً محملة من الهدايا والكنوز . لكن غاتفر ملك الهياطلة ، لم يرض بهذه المصادقة لأنها تضره ، وملكه تسلبه . فأغار على الرسول ونهبه من المحمول لما مرّ من أرضه متجهاً إلى إيران . فجمع الخاقان جيشاً للثأر من غاتفر . فالتقوا على مايّ مرغ . فتلاطموا وتلاحموا لمدة أسبوع . ولما كان اليوم الثامن خفقت رايات الخاقان بالظفر ومُني الهياطلة بالكسر . فارتدوا إلى مناطقهم ، ونصبوا ملكاً جديداً يُدعى فغانيش ، وقرروا إرساله إلى

أحبه كسرى وأبعد عنه البلوى . فعامله بالإحسان وأنعم عليه الخيرات . وكان أنو شروان لا يأكل طعامه ولا يشرب شرابه إلا من مطبخ الوزير . ولا يقدمه له إلا ولدا الوزير اللذان كانا يلازمان خدمة الملك . لكن الحسد أعمى والشر بلوى ، وقلب الحاجب زروان يطفح بالحُمى التي أكلت جسده من نار الحسد ولهب الجسد . فكان يتحين الفرص للإيقاع بمهبوذ . لكنه ما استطاع لثقة الملك فيه ومحاولات مهبوذ ليتقيه . فلجأ إلى السحر بواسطة يهودي كان قد قصده في خدمة لدى الملك . فأخبره بحسده واطلع على خطته القاضية بإخباره عن طعام كسرى . فإن كان فيه لبناً ، نظر إليه راقياً عليه . وفي ذات صباح أحضر الغلام طعام الإفطار . فكان لبناً وشهداً وماوردأ . فنظر إليه اليهودي قبل تقديمه لكسرى الذي ما أن تهيأ لشربه ، دخل زروان وحذّره من اللبن المزوج بالسّم . فتقدم ولدا مهبوذ وشربا منه فماتا للحال . فهبّ كسرى واقفاً ونحو قصر مهبوذ جارياً . فقتله وأهله منتقماً لفعله . ثم خصّ الحاجب بأعلى المراتب . فأمنه ووثق منه ، وبكل الهدايا والخيرات أنعمه . لكنه عاد وشكّ فيه في محاوره بين جالسيه . فقد تكلموا عن السحر والرقي بالنظر . فساورت كسرى الظنون ، خصوصاً بعدما تذكر ما كان

كسرى لطلب المساعدة وامداد المعاونة ، لكن هذا الأخير لما علم بانتصار الخاقان وانكسار الهياطلة بالرغم من كثرة عددهم وقوة جيشهم . جمع قواده ووزراءه للتشاور والتداول في أمر الخاقان . فنصحوه بالمطالبة مؤننين الهياطلة لأنهم لا قوا جزاء فعلهم وطول يدهم . لكن كسرى اتهمهم بالجبن وتشمّر لمقابلة الخاقان . لئلا يفترض الأخير أنه ارتعب منه وفرع بطشه . فتوجّه بجحافل إلى جرجان عازماً كسر شوكة الخاقان ، الذي ما ان سمع بقدومه وقوة أسوده حتى آثر الملاينة وارتضى المسألة . وبعث إليه برسول يسأله المصادقة ويخبره عن ملك الهياطلة لما اعترض رسوله المحتمل إليه بهداياه وأنفس عطاياه . فاستقبله كسرى منظره كرمه وحفاوته . وظلّ عنده مدة شهر . ثم أحضره مع رُسل الهند والروم وسائر البلاد ليشهدوا قوته وشجاعته في منازلة الفرسان ومقاتلة الغربان . فلما رأى ذلك رسول الخاقان صعق . ومن قوة كسرى شهق . ثم أحضره كسرى إلى قصره وأمره بأخذ رسالته إلى ملكه الخاقان ، الذي لما قرأها وقرأ ما فيها من قوة الشوكة وعظم البطولة ، قرر مهادنة جانبه وتزويجه ابنته . وظلت الرُسل تنتقل بين

الجانبين ، آخذة من كسرى سؤالاً ، وجالبة من الخاقان جواباً ، حتى قبل كسرى الزواج من ابنة الخاقان بعدما وافق العلماء وكبار الكهّان . واختار من أصحابه شيخاً عاقلاً يسمّى مهران ستاذ . وطلب منه السفر إلى الخاقان لاختيار بنت من بناته تجمع بين كرم الحسب وشرف النسب ولا تنتمي إلى أولاد الإمام بل إلى أشرف الكبراء . فسار الرسول بموكب عظيم . فلما وصل أكرمه الخاقان وأعز مقدمه ، وأنزله في موضع يصلح له . ثم أدخله على بناته الخمس . فاخترت واحدة ليست كغيرها فقد كانت بلا تاج ولا طوق ، مُتذكراً قول كسرى قبل وداعه : « لا تغرّتك الحلي والحلل بل اختر من كانت أرفع علماً وأسمح وجهاً واختلافاً عن غيرها » . فكانت التي اختارها بنت الخاقان من الخاتون الأصبيلة النسبية ، وقد كره الخاقان تزويجها لكسرى ، لحبها وأصالة نسبها ، فلما علم الخاقان باختيار الرسول ، شكاهم إلى الخاتون واجتمع مع المنجمين الذين بشروه بزواج سعيد وثمر مديد لإيران وبلاد توران . فوافق وأرسل ابنته بما خفّ حمله وغلا ثمنه . فاستقبلها أنو شروان وعقد زواجه عليها ، وبالغ في إكرامها وإعظامها . ففرح الخاقان برضى كسرى وبسرور ابنته .

فتنازل له عن سمرقند والشاش والسغد . فاتسعت بذلك
رقعة ممالكه وعظمت مسؤولياته . فساس بالعدل والإخلاص .
وحوّل الصحاري إلى جنات والبور إلى عمران . وقطع
دابر اللصوص فدخل الجميع تحت طاعته وقدّموا له
الحراج من الروم والصين وسائر الأقاليم .

١٥

بزرجمهر والشطرنج وكسرى

لم يرضَ شنكل ملك الهند بالتزام الحراج والدخول
تحت طاعة كسرى . فأرسل له مع الرسول الهدايا وآلاف
العطايا مع لعبة لم تكن معروفة هي الشطرنج ، قائلاً له
مع رسوله : « إذا استطعت أن تحرك الأحجار وتعرف
كيفية الإدبار ، ثم تضعها في مواضعها لغلبة أعدائها ،
فإليك مني الحراج . وإن عجزت عن ذلك ، فلا تلزمونا
الحراج والتزموه ، فحقّ عليكم أن تقدموا العلم ولا
تتقدموه » . فسر كسرى بذلك واستدعى مفكّر دولته
ومختص شعبه بزرجمهر ، الذي وضع التماثيل في الصفوف .
فوضع الشاه في القلب ، ورتب الدستور على اليمين ،
ورتب الميمنة والميسرة ، وقدّم الرجالة أي البيادق بعد

ABDEEN

جمهور ملك الهند ، الذي توفي وترك ولداً اسمه جو .
وتزوجت الزوجة من سلفيها وأنجبت ولداً الثاني واسمه
طلخند . فمات الزوج وترك الزوجة تأمر وتنهاى وتدير الهند
إلى أن يكبر الولدان ويستلم أحدهما الحكم . وكانت كلما
سألاها من سيتولى الحكم من بعدها أجابت : « من كان
منكما أرفع أدباً وأعظم خلقاً ، وليته أمور الهند وبلاد
السند » . فلما كبرا والحكم سألا ، فضلت الوالدة
الأكبر على الأصغر لكبر سنه ورجاحة عقله وحسن خلقه .
فلما أفضت بذلك إلى طلخند أبى أن يحكم غيره ، وعلى
العرش يجلس شقيقه قبله . فتركت الوالدة الأمر للوزراء
للتشاور مع العلماء أمام الملكين المتنازعين . فلما سألوا
الجلساء تحزّبوا وفضلوا لكنهم لم يقرروا . فتقدم جو
ونصح طلخند بالاعتدال والموافقة والتمثل بما عمل أبوه مع
عمه حين ترك له ملك الهند . لكنه رفض وأعمال أبيه
نقض . فاستعد الأخوان لبدء القتال فقسّم القواد الجيوش
إلى ميامن ومياسر ومقانب ومناسر ، وقدّموا الرجالة أمام
الفرسان في آلات الضراب والطعان ، وأسرجوا الفيلة
لركوب الملكين . لكن جو قبل أن يبدأ ومن جيش أخيه
يَهْزَأ ، راسل طلخند ثلاث مرات داعياً إياه إلى تجنب
القتال وعدم إراقة الدماء ، طالباً منه معاونته ومؤازرته ضد

أن أقام على كل طرف من الرقعة مبارزاً أي الرخ ،
ورتب الفيل والفرس من جانبي الشاه . فسوّى صفوفها
حتى تقابلت وتوازت مثل الصفوف المعبأة يوم اللقاء .
وظلّ بزجرهم في تفكيره بالأمر ، بعدما عجز العلماء
عن استخراج كيفية اللقاء والتخلص من الأعداء . حتى
استطاع أن يستخرج طريقة لعبها وفكّ رموزها بعد أن
وضع بفطنته وذكائه نرداً من خرزتين من العاج منقطتين
بالساج . فلما انتهى ، قصد أنو شروان الذي أكبر أمره
وأعظم قيمته وأرسله مع رسول ملك الهند بلعبة جديدة
تسمى النرد . طالباً منه فكّها ، ومعرفة طريقة لعبها .
فإن عرف أخذ الهدايا والنفائس . وإن لم يعرف وضع
فوقها (أي الهدايا) ما مائلها وأرسلها إليه . فاستقبله
ملك الهند ونزل مع علمائه وكبار حكمائه في حل النرد .
فلما انقضت المدة المعينة ، جاؤوا إليه مُعَرِّبين عن عجزهم
وعدم قدرتهم في معرفة الطريقة للوصول إلى الحقيقة .
فدلّهم بزجرهم على الطريقة الصحيحة للعب النرد .
فأثنوا عليه كل ثناء وودعوه بكل بهاء ، مرسلين معه
الحراج وطلبات أنو شروان مهئين الملك بعالمه بزجرهم .

أما الشطرنج فوضعت في بلاد الهند تلبية لرغبة زوجة

الأعداء ، مقترحاً عليه تقسيم الأراضي بينهما . لكن طلخند تعنت وبرأيه تشبث ، وأمر جيشه بالهجوم طالباً منهم - عكس أخيه جو - سفك الدماء كأنهم أعداء . فلما تراحفوا وتلاقوا ، غلب جوّ وطلب من طلخند العودة إلى الإيوان ، الذي ما أن عاد واجتمع جنوده عليه حتى عاود القتال طالباً النزال . فلاقاه جوّ على ساحل البحر . وحفر كل واحد منهما حوالى عسكره خندقاً ، ألقى فيه الماء . ثم إنهم التقوا ، وجرت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها جنود طلخند . فلما رآهم مجندين ، بين الصحراء والخنسوق مقتولين . خرجت روحه من الأسف والهم وهو على فيله . فتقدم إليه جوّ واحتضنه وبكاه ، آخذاً إياه إلى والدته التي ما أن رآته ميتاً لطمت وندبت وانتحبت كثيراً . وقامت لترمي بنفسها إلى النار . لكن جوّ سارعها ومن النار أنقذها . فعنفته ووبخته على ما فعل بأخيه . فحلف وأقسم وعلى روح أخيه ترحم ، بأنه لم يقتله ، بل طلعت روحه ليا في قلبه من حقد دفين وكيد أليم . فصدّفته وطلبت منه عزاءً لوحدتها وكبر مصيبتها أن يمثل لها الواقعة كما جرت على رقعة . فجمع علماء الهند وأخبرهم بما جرى في الحرب . فتشاوروا وفكّروا واستحضروا الأبنوس وعملوا تخناً صوروا فيه مائة بيت . ثم عملوا

من الساج والعاج صورة شاهين معتصبين بالتاج مع جنودهما وخبولهما وأفيالهما . ثم صفوها صفوفاً فجعلوا كل واحد من الشاهين في قلب عسكره ، وعلى يمينه وزيره ، ووضعوا إلى جانب كل واحد منهما من الميمنة والميسرة فيلّين يتقلان في ثلاثة بيوت . وجعلوا دون الفيلين جملين عليهما راكبان ، ودونهما فرسين عليهما فارسان ، ودون الفرسين رخصين كأنهما مبارزان يركضان يمّنة ويسرة ، ولا يقف قدامهما أحد . ورتبوا الرجالة مصطفين أمام الكل . وكلما انتهى واحد منهم إلى آخر المعترك صار في مرتبة الوزير ، يقعد بجانب الشاه ويختلف بين يديه . ثم كل واحد من هؤلاء المقاتلين إذا رأى الشاه في بيت صاح وأشار إليه بالإحجام والتنحي من ذلك البيت . ثم ان أحد العسكرين غلبوا فسدّوا الطريق على الشاه . فنظر فرأى عساكر العدو قد أحاطوا به من كل جانب ، وسدّوا عليه كل مسلك فمات من الهم والأسف ما بين المعترك .

وكان لكسرى في قصره وتحت أمره ، طبيب ماهر وحكيم باهر هو برذويه . استأذنه مرة في الذهاب إلى أرض الهند لطلب دواء مصنوع من حشيشة ، كان قد قرأ عنها . هذا الدواء يعيد الإنسان من عالم الأموات إلى

الأحياء . فأذن له وحمّله التحف الوافرة والهدايا الباهرة
لملك الهند . طالباً منه مساعدته وتسهيل أمره . ففعل ملك
الهند ووضع علماءه وحكماءه تحت خدمة برذويه . فجابوا
الجبال والسهول والوديان بحثاً عن الحشيشة ، فما وجدوها .
فرجعوا خاسرين وحزينهم مُظهرين . فطلب برذويه من
ملك الهند أن يأتيه بالأوفر علماً والأكبر سنّاً والأوفر
فضلاً ليسأله ، وعن سر الحشيشة يفهمه . فلما اجتمع
به دلته على كتاب كليلة ودمنة الموجود في خزائن ملك
الهند . لأنه – أي الكتاب – بمنزلة الدواء إلى المريض ، كما
هو بمنزلة النور إلى الجاهل . فطلبه وأخذ يطالعه . وكان
كلما انتهى من فصل ، كتبه بعدما حفظه وإلى انو شروان
أرسله . فلما انتهى منه رجع إلى كسرى . فبذل له الهدايا
وقدّم العطايا . لكنه لم يختر منها إلا ما ستر جسده وكفى
نفسه . وطلب من كسرى أن يتفضل بزرجمهر عند تحريره
الكتاب ، أن يخصص له باباً يشتمل على ذكره وسيرته .
ففعل ومن ثم في وقت لاحق نقل الكتاب إلى العربية
عبد الله بن المقفع .

ولما كان كسرى يحب الصيد متحرراً من كل قيد .
فقد خرج مع بزرجمهر لاصطياد الغزلان والأوعال . فلما

انتهى وقد نعس ، نام في حجر بزرجمهر على أرض
معشبة ملاءها الخضرة . وبينما هو نائم إذا بطائر أسود يخطف
إسواره ويقتلع جواهره . فتطير بزرجمهر من ذلك وأصبح
كالأسود الحالك . فلما استفاق كسرى ورأى ما هو فيه
من تغير المزاج ، ظنّ أن ريحاً هوجاء وعاصفة موجاء قد
هبت وهو نائم . فعنتفه وأنتبه وعن تفكيره بأنه يستطيع
أن يغير أحوال الطبيعة ، شتمه . ثم اتجه إلى قصره وهو
غاضب ، وأمر بسجن بزرجمهر والامتناع عن المثول في
حضرته . فبقي على ذلك مدة وزاد في سجنه حدة . لما
كان كسرى يسأل عنه فيجيبه بواسطة قرين كان يخدم
الملك . بأنه أحسن منه حالاً وأكبر مقاماً . فاستشاط
كسرى غضباً وامتلأ غيظاً . وأرسل كاهنه مع صاحب
سيفه ليسأله عما يعني وهو في حبسه من الشدة والضيق .
فأجابه : « كل شيء له نهاية حتى ولو كان بدون بداية ،
فعلام التكبر والتجبر وزيادة التأمّر ؟ مع العلم أنهم سيتهون
بانتهائك وسأخرج بعد ذهابك » . فتعجب كسرى لقوله
ولطول صبره . فأفرج عنه وسامحه . ثم استدعاه ليكون
منجاء بعد عجز الآخرين ، لما بعث له ملك الروم صندوقاً
ما فيه غير معلوم ، جعله شرطاً لالتزام الخراج ، إن هو
حزر ما فيه وفكّ عن أسراره . فحضر بزرجمهر وأثنى

على الملك الذي ندم على فعله خصوصاً بعد كفت بصره .
وطلب منه حل اللغز وفك الرمز . فأخبر الملك أن في
الصندوق درراً ثلاثاً . إحداها مثقوبة ، والثانية نصفها
مثقوب ، والثالثة بكر لم تثقب . وكان قد عرف السر
وهو قادم على الطريق . لما التقى بامرأة لها زوج وولد .
وثانية لها زوج وليس ولد . وثالثة كانت عذراء لم تمسها
يد إنسان . فتعجب كسرى منه وأزاح البلوى عنه بإكرامه
وتعظيمه وبإظهار أسفه . فدعا بزرجمهر للملك وأخبره
بحقيقة الطائر لما نام في المتصيد .

وكسرى ، كما نلاحظ ، الأمر الناهي والملك الباقي . فقد
أخذ منزلة الوزير واستفرد لنفسه بوظيفة المشير . فهو
المتصرف في كل مسألة والمدبّر لكل غزوة . فالعدل مجراه
والبريء يأواه لسداد رأيه وكثرة وزرائه . فهو الحكيم مع
الحكماء ، والكاهن مع الكهّان ، لذلك اشتهر اسمه وذاع
صيته وحنّت الملوك رؤوسها ليكبر قيمته وعلو شأنه إلا
ابن ملك الروم ، الذي توفي والده وأخذ مكانه . فلما
بعث إليه كسرى يعزيه وعن حزنه يُسلّيه . استشاط غضباً
وامتلاً حقداً ، لأن الرسالة التي وصلته كتبت عليها :
« من كسرى إلى قيصر » . وكان يريد أن يبدأ باسمه

قبل اسم كسرى . فعنف الرسول واستقبله كالمسلول
وأنزله بمكان غير مأمون . فما أن رجع ، حتى أخبر كسرى
بعظم البلوى . فقرر الحرب والتأهب للضرب . وسار
بجيوشه قاصداً حلب . فالتقى الروم الذين جاؤوا من
عمورية . فتلاطموا وتزاحموا وضيق على كسرى الحصار .
فبعث في طلب المؤونة والمال من مازندان . لكن بزرجمهر
أشار عليه بالاستدانة قبل وصول الأمانة . فبثّ رسله في
البلاد طالباً الإمداد . فلم يستجب له إلا نخفاف (اسكافي)
سمع الطلب من الأطراف . فوضع أمواله وأرزاقه تحت
تصرف الملك على شرط أن يُعلّم ولده الوحيد الأدب
والخط وأسرار الفلك . فلما عرف كسرى استعظم الطلب
ورفض تعليمه الخط والأدب لأن ابن المحترف إن تعلم
غير الحرف ، وصار أديباً عالماً ، غير عقله واستعظم
أمره ، فلا يأتي منه إلا الحسد وتدبير الخطط . لذلك رفض
طلبه ورد ماله وأنقذ نفسه من حيث لا يدري . فقد جاءه
رسل الروم يطلبون السماح ويرجون لقيصر الإصفاح ، لأنه
شاب لم يُدرّب . وعداء كسرى لم يُجرب . وزادوا
له الخراج أضعافاً والهدايا أحمالاً . فسُرّ منهم وصفح
عنهم ورجع منتصراً إلى طيسفون . فما أن ارتاح مدة حتى
أثقلته الأمراض وتنازعت الأوهام . فاجتمع إلى بزرجمهر

وطلب منه مساعدته في اختيار خليفته من بين أبنائه الستة. وقد كان يفضل الأكبر هرمزد لكبر سنه وقوة بدنه ووفرة عقله وغزارة علمه وأدبه . وكان قد وضع له حُرَّاساً في السر يستقصون أخباره ويتبعون حركاته . فأخبروا والده بحسن سيرته في معاملة عشيرته. فعهد إلى بزرجمهر امتحانه.

اجتمع الحكيم المشهور بالخلف المذكور مع طائفة من العلماء والحكماء . وأخذوا يسألونه عن الحياة والممات والخلود والبقاء . وعن الرحمة والمعاملة والتلطف والمسايرة . وعن الشجاعة والقوة في مواجهة الأخطار وعبادة النار . فجابهم وبكلماته أسحروهم ، حتى أنهم تبادوا ومن حسن كلامه استزادوا . ثم أخبروا والده بتعيين الخلف بعد رحيل السلف. فأعطاه رسالة الخلافة طالباً منه تنفيذ الرسالة ، مُحافظاً على ذكر الإحسان الذي اشتهر به ملوك إيران وأوصاه بالبنيان والعمران وخدمة كل ممالك إيران ، وبالعدل والطاعة ، ومد العون إلى الفقراء والمحتاجين والنظر في شؤون المساكين. مُتَّخذاً العقل في تحكيم الأمور وتقبل الشكاوى بكل سرور.

ظهور بهرام الملقب بجوبين

استلم هرمزد عرش إيران بعد وفاة كسرى . فحكم بالعدل والإنصاف ، لكنه عاد وتغيّر إلى الإجحاف . فبدأ القتل والتنكيل مُبتدئاً بوزراء أبيه . وكان من بينهم كاتباً داهية في المعاملة والمسايرة . فسجنه ومنع عنه الطعام. فاشتكى الأخير إلى كبير الكهّان الذي خالف أمر هرمزد وأخذ له من الطعام ما أراد . فلما عرف الملك ، قتل الأول وأطعم الثاني طعاماً مسموماً ، أهدر روحه وأطفأ عقله . فعمّ الظلم البلاد وقتل الكثير من العُبّاد .

ثم ان هرمزد أراد القضاء على سمياه بن برزين . فأحضر صديقَ سمياه الأمين . وطلب منه أن يشهد ضده حتى يستطيع أن يجبسه ويخرس صوته . فلما اجتمعا وأخذ

ABDEEN

يسأل عن أخبارهما ، قام الصديق بهرام ، وشهد ضد سمياه ووبخه لأنه تمسك باختيار هرمزد ولياً للحكم بعد كسرى . فأدت شهادته إلى حبسه ومن ثم إلى قتله ، بعدما زاره هرمزد مخبراً إياه بقتل سمياه ، طالباً منه إخباره عن السر الذي أخفاه . فأعلمه بأن في خزائن كسرى ، صندوقاً يزيح عن شعبه البلوى . فلما أحضره وقرأ ورقته القاضية بزوال عهده على يدي أقارب زوجته بعد اثني عشر سنة ، قتل بهرام بعدما سجنه وعذبته .

لكنه عاد وأصلح نفسه ، مغيّراً حكمه . فأخذ يطوف في البلاد داعياً إلى نشر المحبة ، وبث الشكوى حتى ولو كانت عن طريق ابنه . فقد كان له ولد يدعى كسرى ويُلَقَّب بـبرويز . دخل فرسه مرة إلى حديقة كبرى . خرَّب أرضها وأكل زرعها . فشكاه صاحب الحديقة إلى هرمزد الذي قطع أذن الفرس وذنبه . وعوّض على صاحب الحديقة بمال كثير . فاشتهر هرمزد بحامي الضعفاء والفقراء وقاصم ظهور الأغنياء والأقوياء . وظلَّ حاكماً وظلَّ العدل ناشراً ، إلى أن تآلبت عليه الملوك من جميع الحدود ، فخرج ملك الروم بالآلاف . والحقان ساوه شاه بعشرات الألوف . وملك الخزر وملك العرب بأعداد كبيرة وآلات

عديدة كلهم يريدون ملكه ويعملون ضده . فاجتمع مع الوزراء والقواد ، عليهم يصلون إلى قرار ويجبرون أعداءهم على الفرار . فقال له وزيره : « ضد هذه الأعداد لا يمكنك الإمداد . حتى ولو كان جنودك كالأسود وفرسانك كالسدود . والرأي أن تجنح إلى السلام في موضع ، وأن تنازل البعض في موضع » . فعمل هرمزد بكلامه وتراسل مع ملك الروم طالباً منه السلام واعدأ إياه بالأراضي التي أخذها كسرى منه . فانكفاً الأخير إلى ملكه واستكفى بحكم شعبه . أما ملك الخزر فقد أرسل إليه قائداً يدعى خراد ، فأهلك بلاده كأنه الجراد . ثم استولى على أرضه وأدخله تحت طاعته .

أما ملك الترك ساوه شاه فقد تريت قليلاً في أمره نظراً لضخامة عدده وعدده . وأخذ يستشير في أمره أصحاب رأيه ، ومنهم الشيخ الجليل والعالم الكبير مهران ستاذ الذي كان يعمل في خدمة كسرى . فأخبره بأنه لما ذهب لخطبة والدته ، (والدة هرمزد) بنت الخاتون من الخاقان ، لم يرض بتزويجها إلى كسرى إلا بعد إطلاعه على أخبار المنجمين الذين أخبروه ببشارة ولد (هو هرمزد) يحكم بلاد إيران وتوران بمساعدة فارس بطل يلقب بجوبين . ففرح

لكنه لم يجده لأنه تمكن من الفلول . ثم بعث بمفاوضيه إلى بهرام يسأله السلام والانقلاب ضد ملك إيران . لكنه لم يذعن وبإغراءات ساوه شاه لم يَلِن . فهياً نفسه للقتال وحلم بالتزال فرتب جيشه وقسمه ووضع في كل قسم ثلاثة آلاف فارس ، ليواجهوا أربعين ألفاً في ثلاثة أقسام مقابلة .

ولما كان الصباح بعد ليلة كَثُرَ فيها شرب الأقداح ، تقابل الجيشان . فتقدم ساوه شاه بقبيله ناوياً دعس أعدائه بأرجلها . لكن بهرام تصدى لها وبنصاله أصابها . فدخلت خراطيمها وأصابت آذانها . فهاجت وماجت وإلى الورا عادت . فمشى بهرام وجنوده وراءها وقتلوا مع الفيلة أصحابها . ثم توجه جوبين نحو ساوه شاه الذي كان يراقب المعركة كأنه في مصيدة لضيق المكان بكثرة الفرسان . فنازله وبسهم اخترق ظهره ، أصابه . فمات للحال بعد فقدته كل الرجال الذين انتشروا بالصحراء مخضبين بالدماء . فلما تم لجوبين ما أراد جلس ليستريح ، ومداواة جسمه الجريح . فجلب له الجنود ساحرَ ملك الترك الذي أظهر له ليلة المعركة رؤيا ظنَّ فيها أنه هالك لا محالة . فأمر بقتله واجتناب شره . ثم أرسل إلى هرمزد يعلمه بالأخبار

هرمزد وأرسل في طلب المبعوثين للعثور على جوبين . فوجدوه حاكماً على اردبيل . فجلبوه وفي حضرة هرمزد وضعوه . فأكرمه وأعز مقدمه وسلّمه جيشه وأمره بمحاربة ملك الترك والصين وإثبات ما تنبأوا به عن جوبين . فاختر اثني عشر ألف فارس ممن حنكتهم التجارب ونجذتهم النوائب . لا يزيد عمرهم عن الأربعين ولا يصبح تسعة وثلاثين . وذهب لقتال ساوشاه بعدما أهداه هرمزد علماً على شكل ثعبان وودعه لقتال الخاقان . ثم سار وجاوز إقليم طيسفون . فرآه الرسول الذي أرسله هرمزد سرّاً لتتبع أخباره بعدما شكَّ بحاله . فرجع إلى هرمزد وأخبره بصحة شكوكه وحقيقة أخباره ، خصوصاً بعدما قتل بهرام جوبين رجلاً من أتباع ملك الصين ، ولم يقل « بسعادة الملك » . فما كان من هرمزد إلا أن أوفد رسولاً إلى ملك الترك ليتعرف على أحواله وينظر في أعداده . فتوجه ومرّ بجيش بهرام وأخبره بندهابه إلى الخاقان . ثم تابع طريقه ووصل مقصده . فاستقبله ساوه شاه بعدما قدم له هداياه .

في هذا الوقت ، كان بهرام جوبين قد قدم ، وفي ضواحي أراضي ملك الترك خيم . فأرسل ساوه شاه ابنه مستظلاً . فجاءه بأخبار الحرب منذراً . فقام ليقتل الرسول

وكيفية الانتصار . ففرح الأخير وأمر بنثر الدنانير . وفرّق على الفقراء ، وأفاض على الصلحاء وعمّر المعابر وبيوت النار وأرسل إلى بهرام يؤذنه بقتال ابن الخاقان بعدما غمره بالخيل وبالفانس البدع .

أما برموزه ابن الخاقان فقد خرج بجيش جرّار للثأر من قاتل أبيه بعد لوم معاونيه . فعبر نهر جيحون ولحق بهرام الذي كان يتصيد في أرض واسعة كالسهول الشاسعة . فلما عرف بقدم ابن الخاقان ، فاجأه بالحيلة وتمكن من جنوده بسهولة . وهرب برموزه إلى قلعة حصينة تسمى أواز كانت ملجأً لآبائه ، ومفرأً لأجداده . فوكل بهرام صديقه يلان . وأمره بقتل كل من يصادف طريقه ويعترض جيشه . ففعل يلان بما أمر حتى اقترب من القلعة وتمكن من حصارها وأجبر ابن الخاقان على طلب الأمان . فكتب بهرام بذلك كتاباً إلى هرمزد ، وأرسل إليه رسولاً . فلما رجع عرف جواب هرمزد بتجهيز برموزه وإرساله إليه . فذهب بنفسه واستلم القلعة . فلما خرج ابن الخاقان تكلم مع بهرام بجفاء وكبرياء مما أثار غضبه وأشعل لهبه . فأمر به مقيّداً وبالسجن منزلاً . فلما مرت بضعة أيام تحادث معه الكتاب وأشاروا عليه بفتح الباب لئلا يغضب هرمزد . فأطلق سراح برموزه

ونزل في خدمته سائلاً إياه السماح ، والتكلم عنه بالإحسان لما يصل حضرة هرمزد . ثم ودّعه ودخل القلعة . فدُهِش من محتوياتها وكثرة نفائسها . واختار لنفسه ما كان لسياوخش وأمر بحمل الباقي إلى هرمزد .

وصل الخاقان إلى حضرة هرمزد فاستقبل بالترحاب كأنه من الأصحاب . وكان الحرب التي وقعت زادت عناصر الصداقة وجعلتها من الصحابة . وجلس هرمزد على عرشه ليتفحص الأحمال التي حضرتها والأخبار التي وصلتته عن بهرام بأنه استصفى المغانم وأخذ أحسن المكاسب ثم جلس مع الخاقان ، وجددا عهد الأمان . وواعد الخاقان هرمزد بالدخول تحت طاعته والعمل على خدمته مهما ظلّ على عرش الصين حتى ولو حاربه جوبين . ثم ارتحل من أرضه واتجه إلى قلعته . فمرّ بهرام الذي استقبله مع الأعيان . لكنه لم يلتفت إليه ولم يصرخ عليه . كأن شيئاً لم يحدث بينه وبين بهرام .

ثم إن بهرام رحل إلى بلخ واستلم رسالة من هرمزد مدبّجة بالكلمات العنيفة والعبارات الشنيعة ، يوبخه فيها على الغرور بنفسه ، والحصول على أحسن المغانم لنفسه مُرسلاً مع الرسول قميصاً من الشعر ، وسروالاً أحمر ، ووعاء فيه

قطن ومغزل إلى غيرها مما يصلح للنساء . فلبسها بهرام
وجلس في الإيوان وأدخل عليه الأعيان وكبار الزمان ليروا
فِعْلَ هرمزد وظنه به ، هو البطل المغوار والفارس القهار .
فونخوا هرمزد على سوء ظنه وعيب فِعْلِهِ ، وخرجوا من
عنده بعدما أخذ يُظهر ولاء الطاعة للسلطان ، ويدعو غيره
إلى عدم إشاعة الفوضى وتجنب البلوى . وذهب بهرام مرة
مع رجاله وأعوانه للصيد . فاصطادوا ووراء حمار وحشي
ركضوا . فأمر بهرام رجاله بترك الحمار الوحشي له .
فركض وراءه وجرى خلفه حتى وصل إلى قصر باهر كأنه
لساحر . فدخله واستقبله أهله . ولما تأخر عن الرجوع ،
انشغلت عليه الجموع . فلحقه يلان إلى القصر الذي دخله .
فدخله ورأى بهرام جالسا في إيوان ، حوله امرأة متحلية
بالحلي ، وغلمان قصار كأنهم أقمار . فلما أحست المرأة
بدخوله ، أبعدهت عن بابها دون أن يرى فِعْلَهَا . ثم خرج
مع بهرام الذي تغيّر حاله وامتقع لونه . فلما سأله يلان ما به ،
أجابه بكبرياء كأن به داء . فلما وصلا إلى الجموع ، لم
يتكلما عن الموضوع . بل أمر بهرام بإقامة إيوان كالذي
للشاه . ثم أخذ يأمر ويظفي ، وعلى كل شيء لا يرضى .
فتنبه أعوانه للأمر وأخذوا يهربون بالسر . فهرب خرّاد
ابن برزین مع الكاتب إلى حضرة هرمزد . فوصل الأول ،

ولم يصل الثاني . لأن بهرام عرف بأمرهما وأرسل جنوده
خلفهما . فقبضوا على الكاتب وفرّ خرّاد . ولما رجع
إلى حضرة بهرام سأله عن سبب الفرار . فأجابته واضعاً
اللوم على خرّاد بن برزین الذي راوغه في الهروب من
خدمة جوبين ، بعد تغير حاله واستعلاء نفسه . فسأحه
ورجع إلى خدمته .

وصل خرّاد إلى حضرة هرمزد وأخذ يخبره بأحوال
بهرام ، وتغير نفسه بعد الوثام ، خصوصاً بعد رحلة
الصيد . فتعجب هرمزد من تصرفاته . وأرسل في طلب
المنجمين لإيضاح أخبار جوبين . فأخبروه عن حادثة الصيد ،
بأن حمار الوحش هو الشيطان الذي قاده للمرأة الساحرة
التي منته بالسلطنة وحكم المملكة . لذلك تغير حاله واستعلى
نفسه . ونصحوه بتدبير خطة لاسترجاع عسكر جوبين ،
لأنه لن يطيع بعد اليوم أمره ، ولن يسير معه . ثم أتاه
رسول بهرام بسلة مملوءة خناجر . فكسرها وردها إليه .
فلما أرجعت إليه مكسورة ، جمع قواده وأعوانه واستشارهم
في خلع السلطان والجلوس على عرش إيران . فزيّنوا له
الأمور وزادوا نفسه بالغرور ، إلا أخته التي دعت إلى
تجنب المغامرة وسلوك طريق المسيرة والمسألة . ثم وجهت

كلامها الى القواد والأعيان . فأنبتهم وعلى جرأة أفكارهم
حقرتهم داعية إياهم إلى عدم التفكير بالتاج لأن أخصاها
ليس من سلالة الملوك ، ولا يجوز له أن يسلك هذا
السلوك . لكن بهرام كان قد اقتنع برأيه ، وأخذ يدبر
لخطته . فكتب إلى الخاقان يعتذر منه ويسأله الصفح عنه .
ثم سكت نقوداً باسم كسرى برويز بن هرمزد ، وأخذ
يتعامل بها . وكتب إلى هرمزد يعلمه بالخروج عن طاعته
والانضمام إلى ابنه (أي إلى كسرى برويز) . فلما رأى
هرمزد النقود ، وقرأ رسالة بهرام ، تغير رأيه على ولده
وظن أنه خرج عن طاعته . فبعث أعوانه لقتله والتخلص
من جثته . لكن برويز تنبه لأمر قتله ، وفر من بغداد
لتخلص جسده . فلما صار في اذربيجان اجتمع عنده أكابر
إيران ، مع أشجع الشجعان ، واضعين أنفسهم في تصرفه
وعدتهم في خدمته .

لما علم هرمزد بخبر فرار ولده ، قبض على خاليه كستهم
وبندويه ، وحبسهما مع أعوان برويز . ثم اجتمع بوزيره
ومستشار أمره آذين كشسب . فتشاور معه في كيفية إرضاء
بهرام حتى يفرض السلام . فاقترح عليه مراسلته وطلب

مسالته . فإن لم يرض ، توجه إليه بجيش جرار كالبحر
الهدار . ثم جهز جيشه وارتحل عن الملك تحسباً للأمر .
وبينا هو في الطريق التقى بامرأة منجمة تخبر عن الأحوال
الكائنة . فاستحضرها وخلا بها وأخذ يسألها عن أحوال
الملك والعدو . وبينما هما في الحديث مرّ بهما رجل كان
آذين كشسب قد استشفع له ، فأطلق الملك سراحه .
فتوقفت المرأة عن حديثها وحذرت منه لأنه سيقته . وحتى
يتخلص منه ، أحسن إليه ، وأرسل معه رسالة إلى هرمزد
يبلغه فيها قتل الرسول الذي يحمل الرسول . فحملة وطار
به . وبينما هو على الطريق ، فضّ الرسالة وعرف المؤامرة .
فرجع إلى آذين كشسب فقتله واجترأ رأسه وأخذه إلى
بهرام . فلما رآه مع رأس عدوه ، لم يستحسن فعله لأنه
(آذين كشسب) كان قادماً لإصلاح الحال بينه وبين
الملك . فأمر بهرام بذلك الرجل ، فصلبوه .

أما العسكر الذين كانوا مع آذين كشسب ، فتفرقوا
وعند الملك وبهرام وبرويز تقسموا . فهال هرمزد ما
أصيب به وتفرّق عسكره فأغلق أبوابه وأطال حجابه
حتى وقعت المصائب في المدينة ، وتحولت عن السكنية .

فكسر المساجين القيود ، وهجموا على هرمزد كالكروود
وبينهم كستهم وبنديويسه . فخلعوه عن العرش ثم سملوا
عينيه وفجعوه بكرميتيه . ونادوا بشعار برويز ، الذي
جساء مُسرِعاً عن طريق أرمينية فوصل بغداد واستقبل
بالترحاب . فهدأت الحواطر وانفجرت السرائر .

١٧

العدوان اللدودان

أما برويز فإنه لما استلم ، بالعدل والشدة حكم . فاشتهر
صيته وذاع اسمه وكان عهده من أحسن العهود التي مرت
على إيران .

ذات يوم دخل على أبيه طالباً السماح لأنه راح مُعتذراً
على ما بدر منه . وأنه إذا هرب فلحفاظ رقبته وسلامة جسده .
فصدقه والده وسامحه وطلب منه الانتقام من بهرام فوعده
خيراً وطمأنه متمهلاً حتى تهدأ الأحوال ويضعف بهرام .
لكن هذا الأخير لم يهدأ ، وأراد أن ينتقم من برويز لأنه
تبوأ ، فوجه جيوشه نحو النهروان ولاقاه برويز خارجاً
من طيسفون . فوقفا متقابلين على الضفتين . وأخذ برويز
بمآلقه وبقيادة جيشه يعده ، إن هو استسلم وإليه احتكم .

لكنه هزىء منه وصمم على قتله وأمر جنوده بمراسلة جنود برويز يدعونهم للانضمام، ويغرونهم بالاستسلام فما قبلوا وقالوا: « الا ساعة اللقاء » . فاشتبك الجيشان في حرب هوجاء تمكن فيها بهرام من الانتصار ، وتحقيق حقه الغدار . فلما رأى برويز جنوده مجندين بالعراء تحت السماء الزرقاء ، هجم مع أصحابه وكبار قواده على بهرام فما استطاعوا المقاومة ووجدوا قوة مانعة . فانكفأ برويز راجعاً وفرس بهرام صائباً . فترجل هو أيضاً عن حصانه . وأخذ يتضاربان ويتصاولان لكنهما لم يقتلا . فلما مضى النهار ، رجعا إلى معسكريهما بعدما أمر برويز بقطع الجسر القائم فوق النهر . ففقطِع . ثم توجه إلى طيسفون وأخذ يحصن المدينة بالأسوار المنيعة . ثم دخل على والده وأخبره بالهزيمة النكراء بعد الحرب الهوجاء . وطلب نصيحته في الاستعانة بالعرب الذين هم تحت الطلب . لكن الوالد لم يرض لقله مالهم وضعف عددهم . وأشار عليه بملك الروم الذي ينتمي إلى شجرة أفريدون . وبينما هما في هذا الحديث علّت الصيحات باقتراب الأعداء . فهرب برويز مع خاليه وتركا المدينة بعدما قتل أحد الخالين الملك هرمزد لأنها ظناً بعد دخول بهرام طيسفون أنه سيسلمه الحكم لغياب الابن .

دخل بهرام المدينة غير آبه بالأسوار المنيعة . فاختار ثلاثة آلاف فارس وسلّم أمر قيادتهم إلى بهرام بن سياوش وأمره بلحاق الذين فروا وبحماية ملك الروم استجاروا . فسار حتى وصل إلى دير قديم كان قد قصده الثلاثة الهاربون . فلما علم بندويه خال برويز بقدومه ، أمر ابن أخته بالهرب مُفدياً روحه ، لابساً ثيابه وتاجه . ثم قام وجلس على قمة الدير . فلما أيقن أنهم رأوه وعن برويز لم يفرقوه نزل وخلع الثياب . وأخذ يكلمهم من فوق الباب ، طالباً الانتظار حتى ينتهي الملك من الصلاة . فأمنه ابن سياوش ونزل عند طلبه . ثم أخذ يماطلهم مضياً وقتهم . فلما مرّ يومان ، طلب الأمان وأفصح عن نفسه وبيان قصده . فقيده ابن سياوش وأخذه إلى بهرام الذي سجنه ريثما يرى أمره . ثم ان جوبين بعد النصر المبين ، أخذ يتدبر للأمر مُتشيئاً بفرحة الظفر . فجمع أعيان إيران وأعطاهم الأمان . فتكلموا بين مؤيد ورافض وناصح وكاذب . ثم أقرّ رأيه ، ونصّب نفسه ملكاً على إيران ، وكتب إلى الشعب رسالة يدعوهم فيها إلى الانقياد لحكمه والسير حسب رأيه . ومن لم يرد ذلك ، نصحه بالابتعاد والالتجاء إلى ملك الروم كما فعل ملكهم المروم .

حتى وصلوا مدينة المانوى . فاستقبل بالإجلال وتعظيم المقدار . وأخذ برويز ما يريد من الطعام وتوجه إلى حضرة قيصر . وعلى الطريق مرّ براهب متنسك فأخذ يسأله ليعرف مستقبله . فأخبره الراهب بتحقيق قصده والرجوع إلى ملكه وقتل عدوه ، بعد مساعدة القيصر له وزواجه من إحدى بناته . لكنه حذّره من قريب ليس بالبعيد عنه اسمه بسطام (كستهم) الذي سيخرج عن حكمه ويقتل بأمره . ففزع كستهم (خاله) ودعا إلى عدم تصديق كلام الراهب . فوعده برويز خيراً واستأمنه جهراً . وأكملوا طريقهم إلى وريغ . فاستقبله رسول قيصر باستقبال حاشد بين وفد وافد وآخر ذاهب ، مقدماً السلاح وكل ما يحتاج . فسُرّ برويز منه وأخذ يتحدث معه . وطلب إلى كاتبه خرّاد بتدبير رسالة إلى قيصر تسلبه لبّ عقله ، وتزع الثوب عن جسده . ثم أمره بالذهاب مع أصحابه السابقين . فذهبوا وفي حضرة قيصر امثلوا . فاستقبلهم وسمع الطلب ، وأجلسهم على كرسي من ذهب . أما خرّاد بن برزين فلم يتجاسر على الجلوس إلا بعد قراءة المضمون . فلما قرأه وعرف قيصر ما فيه من طلب المساعدة وكبر المعاونة ، طلب مهلة للرد على الجواب ريثما يجتمع بالمستشار وكبار الأمراء . فلما اجتمع بالوزير بعد مشاورة

أما بندويه في سجنه ، فكان يتملق وعلى ابن سياوش يتخلق . وظلّ على هذه الحال حتى أمّنه الأخير وأخرجه إلى العالم المنير ، بعدما اغترّ بلسانه وحلو كلامه . فوعده بقتل جوبين والانتقام لعرش برويز . فلما نازله في مباراة لبس درعه تحت ثوبه لاتقاء ضربته . فما كان من بهرام إلا أن قتله بعدما عرف خطته من امرأته التي لم تكن تحبه . ثم أمر ببندويه ، فلم يجده لأنه كان قد هرب . فندم لأنه لم يقتله في السابق بل تركه إلى وقت لاحق .

وصل برويز بعد فراره مع صحبه إلى مدينة فتلقاه أهلها بالاحترام وبحمل الشراب والطعام . فارتاح مدة ثم سار ، إلى أن قرّب من الفرات . فوجد اعرابياً يدعى قيس بن حارث نحر ناقته لإطعامهم ووضع نفسه في خدمتهم . وسار معهم إلى أن وصلوا إلى مدينة من مدن الروم تسمى كارستان . فأغلق أهلها أبوابها في وجهه وامتنعوا عن استقباله لمدة ثلاثة أيام . فلما صار النهار الرابع ، أرسل الله على المدينة ريحاً عاصفة وأمطاراً باردة فانهدت الأسوار وفتحت الأبواب . فخرج الجميع مستقبليين ، وفي قصر كان لقيصر واضعين برويز مع خاله وأصحابه . ثم قدّموا لهم الأطعمة والعلف وسائر المآبار والتحف . وساروا

الأمير نصحه بعدم المساعدة مذكراً بأيام المقاتلة التي كانت تجري بين الروم والإيرانيين ، طالباً منه عدم التدخل لأنه آن الأوان لانقضاء دولة إيران ، وأن برويز إن انتصر فسينسى مساعدته ويطلب خراجته . ثم ذهبت الرسل ورجعت ، وبالردود جاوبت . فما كان من قيصر إلا أن مدّ يد المساعدة بعد الإطلاع على أخبار المنجمين وأسرار العالمين . وأخذ وعداً من برويز بعدم الاقتراب من حدود دولة الروم ومسألة ملوكهم وعدم دفع خراجهم . فقبل برويز طلبه ووافق على المصاهرة للبرهان على حسن المعاملة .

ثم إن قيصر أراد أن يختبر ذكاء معاوني برويز ومساعديه . فأمر سحرته بصنع تمثال لجارية حسناء لها من الحسن والبهاء ما جعله يدعي أنها ابنته . ثم طلب إلى كُستهم وبالويه الدخول عليها ومعرفة سبب حزنها وانتحابها طول الوقت . فلما دخلا ، ورأياها على هذه الحال ، سألا . فلم يُجاوب سؤالهما . ثم دخل خرّاد بن برزين ، ولاحظ أنها تبكي على نمط واحد في هيئة واحدة . فأدرك للحال أنها تمثال ، وخرج لقيصر يعلمه بالحيلة ومعرفة الوسيلة . ففرح من ذكائه وفطنته وعرض عليه أعجوبة أخرى . لم يرَ مثلها حتى كسرى . وهي فارس واقف في الهواء لا

يمسكه شيء ولا يتكوى على حيط . فلما رآه ، عرف خرّاد أنه من الحديد والبيت الذي فيه من المغناطيس الذي لا تخفى خاصيته في جذب الحديد ، وهو من صنع الهنود ، الذين لا تحدُّ عجائبهم حدود . ثم أخذوا يتشاوران وبالديانات يتسامران . فبيّن خرّاد محاسن ومساوىء النصرانية . وأظهر قيصر إعجابه بالزرادشتية . وتكلما عن دين الهنود وعدم تقديسهم أي معبود . فلما انتهيا ، أثنى قيصر على خرّاد لسعة معرفته ووفرة علمه . وأفاض عليه الهدايا وأمره بالذهاب مع أصحابه إلى برويز لإخباره بقدم الجيش والعروس تحت إمرة أخيه نياطوس .

ارتحل العسكر الرجراج سائرين كالبحر المتتابع الأمواج . فوصلوا مكان برويز الذي ما أن رآهم ، حتى أقبل على نياطوس يقبله ويعانقه وعلى فيعل قيصر يشكره . ثم ذهب إلى مكان مريم عروسه . فلما رفع دونها الحجاب رآها كالشمس وقد انكشف عنها السحاب . فبقي عندها مدة . ثم قام وارتحل وإلى أرض ملك الأرمن وصل . فاستقبله ملكها موسيل وخاله بندويه الذي كان قد اتصل بالملك بعد فراره من أرض بهرام . فنزل الجميع في خدمته وبالغوا في تكريم شخصه . فشكرهم وأثنى على موسيل ثم توجه إلى

بيت النار وأخذ يصلي ويدعو الى الله بعدما نثر جملة من
الجواهر على النار .

عندما علم جوبين بخبر اتصال برويز بقيصر ، استدعى
كاتبه ورجلاً من خاصته يُدعى داناستاه . وأمر الكاتب
بكتابة عدة رسائل الى أقرباء برويز الذين معه . يدعوهم
فيها للاختلاف وفي حضرته يكون الائتلاف واعداء إياهم
بمنصب هامة ومراكز حساسة . وبعث هذه الرسائل مع
داناستاه الذي دخل اذربيجان متنكراً بزى تاجر . فلما
رأى برويز وما عليه من كبر القيمة وجلال الهيبة ، دخل
عنده وأعلمه بأمر الرسائل فشكره ووهبه وعلى فعله أكرمه
وعظّمه . وأمر كتابه بالرد بالموافقة ، لكن يوم
المنازلة . فلما استلم جوبين الردود ، انطلت عليه الحياة
وترك المدينة مع عساكره متّجهاً نحو اذربيجان للوقوف
على أحوال برويز وعدد الروم وعددهم . فلما رآه قواد
الروم ، استأذنوا برويز للقتال . فأذن لهم . فتزل كوت
الرومي كالديك الرومي . فما صمد ساعة أمام جوبين . ثم
التحم الجيشان وأشجع الشجعان . فقُتِل من الروم خلق
كثير . وأدرك برويز أن الروم لا ينفعون نظراً لما حلَّ
من منون . فقرر منازلة جوبين مع أصحابه الإيرانيين .

فلما أصبحوا ، رتبوا صفوف الجيش وتأهبوا للنزول .
ولما لم يبدأوا اقترب جوبين على فيله الأبيض نحو سابور
أحد قواد الإيرانيين مذكراً إياه بالخطاب . فأنكر الأخير
قوله واستغرب كلامه ، فتقدم برويز وأعلم جوبين بانطلاق
الحيلة عليه واستدراجه إليه . ثم أخذاً يتراشقان بالسهام ،
فتزل جوبين عن فيله ورجع الى معسكره . وبينما هو راجع
التقى بأخيه كردويه الذي أنبّه على سلبه الحكم من وليّ
النعم ورجع كل واحد منهما الى معسكره .

أما برويز ، فصمم على المنازلة وحده وقتل جوبين
بنفسه . لذلك انتقى أربعة عشر فارساً حتى يلازموه ،
والبقاء خلف ظهره ليحموه . ثم تقدم نحو معسكر بهرام
الذي ما أن رآه ، اختار من فرسانه أربعة ، ونزل للقتال .
فلما اقتربوا خاف أعوان برويز من قواد جوبين . فهربوا
وبقي برويز وحده . فأخذ يعدو هارباً ، وجوبين خلفه
لاحقاً ، حتى وصل الى جبل كثير الشعاب . فاختم في
واحدة منها مسدودة الطريق . فأخذ يتضرع لله تعالى طالباً
الإنقاذ من المولى ، فتزل عليه ملاك على شكل فارس لم
ير مثله بين الفوارس . فأخرجه من الجبل ووضع في
السهل ، مُبشراً إياه بالانتصار واستلام عرش إيران . ثم

رجع الى عسكر الروم الذين امتلأوا بالهموم بعدما ظنوا أنه قُتل . فرحبوا برجوعه وسُرّوا بعودته . فأمرهم بشن الهجوم تلو الهجوم والقضاء على جوبين .

هجم الليل على الفريقين وهم بالساحة مُتَحارِبين . وظهرت تباشير النصر لبرويز ، فتقدم بندويه الى عسكر جوبين داعياً إياهم الى الانضمام قبل أن يحل السلام ، فَيُجازون بفعلة قائدهم ومدبّر هجومهم . فانحاز إليه معظمهم وتركوا البقية خلفهم مع جوبين الذي آثر الهروب بعدما حلّت عليه الكروب ، فتوجّه الى ضيعة ، يريد الماء والخبز . فوجدهما عند امرأة كبيرة ، أطعمته واستقبلته ومن مائها أشربته . ومن ثم وبخت بهرام جوبين على وقاحته وعدم الدخول تحت طاعة ملكه ، غير عالة بحاله وبحقيقة انتسابه . ثم قام بعدما نام ، قاصداً حضرة الخاقان بعدما لحق جنود برويز ، فغلبهم وأسر قائدهم نستور لكنه لم يقتله بعدما تضرّع إليه .

جوبين في أرض الصين

دخل برويز معسكر بهرام ، فنهبه بما فيه ، وأرسل منه إلى قيصر ملك الروم مُعلماً إياه بالنصر وحلول الظفر . فاستلمها قيصر وأعاد بمثلها مع أثواب وصلبان مصبوبة من الذهب ومُحلاة بالياقوت والزبرجد . فلما استلمها لبسها مضطراً لإرضاء قيصر . ثم اجتمع على الطعام مع نياطوس وبندويه . فلما جلس ليأكل . أعطاه خاله البرسم ، فأخذه بيده وزمزم . فلما رأى نياطوس ذلك تنحى عن السماط وقال : « كيف يجتمع البرسم والصليب . فإنه ليلحق المسيح من ذلك الظلم الصريح !؟ » فلما رأى بندويه ذلك ، لطم صاحب الصليب بيده . فقام نياطوس من مكانه وتوجه الى عسكره . وقدم كالبرق الساطع في الليل المظلم الى خيمة

رآه جوبين ، تعجب من أمره وسوء خلقه فسأل الخاقان عنه ، فأجابه : « إنه بطل شعبنا ، وجالب نِعْمِنَا . فإن لم نعطه المال ، جرّ الفساد الى هذه البلاد . وبهذا نهىء راحته ونستكفي شره » . فعرض عليه جوبين أمر قتله والخلاص من أمره . فقبل الخاقان .

ولما كان اليوم الثاني دخل مغاتوره طالباً المال . فلم يلتفت إليه ملك الصين ، بل ردّ عليه جوبين . طالباً المنازلة بدل المشاجرة . فالتقيا وبالنبال تراشقا . وتمكن جوبين من بطل أمة الصين ، فازداد أمره عند الخاقان ، وأخذ يدخل عليه دون أن يطلب الاستئذان .

وكان مرة أن بلغ ثعبان بنت الخاقان من الخاتون . فاهتمّ واغتمّ وطلب من جوبين تخليص الصين من أمر هذا الثعبان الذي يشبه التنين . فامثل لأمره وخرج بقوسه وسيفه قاصداً الجبل حيث مركز الثعبان . فلما وجدته والى عين ماء استدرجه ، رشقه بسبع نشابات ، وعاجله بعدة ضربات ، قطعت جسده ومزقت رأسه . ثم نزل من الجبل مسروراً ومن فرحة النصر مبهوراً . فاستقبل بالترحاب . وبقي في تلك البلاد ، عالي اللواء راكباً صهوة العلياء ، مرموقاً من بين كل الأتراك . وزوجه الخاقان ابنته وجعله صهره .

برويز طالباً تسليمه بندويه . فتدخلت مريم زوجة برويز وطلبت من زوجها تسليمها بندويه حتى تأخذها الى خيمة عمها . فلما وصلا ، قام نياطوس مُستقبلاً وعن إساءته مسامحاً . ثم رجع معه الى حضرة برويز ، فوهبه الأخير الخلع السلطانية والجواهر الدرية . وأفاض على الجنود . ثم قام وتوجه الى بيت النار . فلما وصله ، اعتكف فيه أسبوعين شاكرراً ربه ، موفياً وعده بتفريق الأموال على المظلومين والفقراء . ثم ارتحل من اذربيجان وسار الى انديو من أرض سورستان . فلبس التاج ، وجلس على عرش جده كسرى أنوشروان .

وصل جوبين الى حضرة ملك الصين . فاستقبله بالإجلال والاحترام وإظهار المودة والوثام . فلما وقف على طلبه بالمساعدة ومد يد المعاونة ، وعده بالخير ومنعه من السير الى ملك الهند لطلب المعاونة إن رفض . فأكرمه وخصص له إيوانين مزيّنين بالفضيات والذهبيات ولم يفارقه إلا في المناسبات .

وكان عند الخاقان رجل شجاع وبطل مقدم يُدعى مغاتوره ، خدم أمة الصين وجلب لها النصر المبين . وكان كل يوم يجيء الى بيت المال ويأخذ منه ألف دينار . فلما

علم برويز بمكانة جوبين عند الخاقان ، وبتفضيله إياه حتى على الذهب الإبريز . فأرسل إليه رسولاً يؤنبه ، وعلى إيواء بهرام يوبنخه . ذاكراً له من هو جوبين ، حتى يكون في خدمة ملك الترك والصين . فلما استلم الخاقان رسالة برويز ، ورأى ما فيها من إنذار بعد طول الانتظار ؛ ردّ عليه برسالة أعنف وبعبارات لم تخلُ من التهديد باحتلال بلاد إيران . فلما قرأها برويز مع مستشاريه نصحوه بالمداورة واستعمال المناورة ، حتى يأمن شره ويسلم حربه ، فاختر خرداد بن برزین للذهاب الى ملك الصين ، وإيغار صدره ضد جوبين . وحمّله بالهدايا وآلاف العطايا . فلما وصل ، وفي حضرة الخاقان امثل ؛ وجد ان جوبين قد ترك أرض الصين وذهب لمحاربة برويز . فبقي في ضيافة ملك الصين ردحاً من الزمن . استطاع خلال هذه المدة من إحلال الصداقة واستطلاع الأخبار بالملاحظة . وتمكن مرة لما يعرفه من علم الطب ، من الدخول على الخاتون متنكراً بزي طبيب وذلك بمساعدة صديق . فاستطاع أن يُشفي لها ابنتها المحمومة . وامتنع عن تقبُّل هداياها المعروضة وفاءً لجميله وحسن صنيعه ، ووعدّها بترك الهدايا لغير مناسبة . فنزلت عند طلبه وعملت بأمره ، فلما حسانت المناسبة طلب منها توقيع ملك الصين على إذن لرجل من رجال برزین ، أراد

لما علم ملك الترك والصين بموت جوبين ، اجتمع مع الوزراء والأمراء لمعرفة الحقيقة في قتل الذي استجار بهم

منه أن يرحل الى أقربائه ليعلمهم بحاله . لأن بهرام كان قد طلب من الخاقان أن يمنع العبور من جيحون ، إلا بأمر منه وبختم خاتمه الذي في إصبعه . فأخذت الخاتون طينة ، وضعتها على خاتم الخاقان . فانطبعت وخرجت بها ودفعتها الى خرداد . فأخذها الى رسوله المعتاد ، وأمره بالذهاب الى بهرام في يوم بهرام (هو اسم اليوم العشرين من كل شهر) . فإنه يتطير من هذا اليوم ويتشاءم به . فلما ارتحل ، والى مخيم بهرام واصل ؛ طلب مقابله . فلما أصبح في خيمته ، اقترب من صدره وطعنه بخنجره ، فتأوه من الطعنة وارتج من الوقعة على الأرض . فجاءت أخته تلطم خدها وتندب حظها . وأخذت تلومه على جهله في معاداة برويز وخدمة الخاقان . فهدأ زوعها وكفكف بكاءها ونصحها عدة نصائح طالباً منها الذهاب الى دولة إيران وطلب الأمان . ومات بعد أن سلّم قيادة جيشه الى صديقه يلان . أما الرسول الذي قتل بهرام فإنهم صلبوه ، وعلى يديه ورجليه ضربوه حتى كسروها . وتركوه مرمياً في صحن الدار .

وترك المدينة . فلما وقفوا على دقائق الخطة وعرفوا الذي قام بالمهمة ، حرقوا أولاده وجرّوا الخاتون بقرونها ، ونهبوا من خزائنها ودورها ما استطاعوا . ثم لبسوا السواد وقعدوا للحداد . وأرسل الخاقان رسالة الى أخت بهرام يعزيها بأخيها ويعلمها بحفظ مكانها وعلو شأنها في نفسه ، طالباً منها الارتحال إليه للزواج منها والبقاء في قصرها . فلما قرأت الرسالة ، وعدته بالانتظار بعد الاعتذار لأنها ما زالت في العزاء والكلام في الزواج كأنه هباء . ثم قامت وجمعت جيشها خلسة تريد الارتحال الى إيران لأن البقاء في بلاد توران يجلب الشر والهلاك خصوصاً على الغرباء .

علم الخاقان من أخيه طبرك بما عزم عليه أخت بهرام . فطلب منه المسير إليها وإرجاعها معه . فإن أبت أمره بالحرب بعد التهديد بالضرب . فلما وصل الى مكانها ، دعاها للرجوع وتنفيذ أمره المسموع . لكنها رفضت ودعته الى المبارزة كالرجال غير آبهة بمكانتها كربات الحجال . فبارزها ومات من سهمها . وهجم يلان بعد مماته على صحبه وعساكره فبدد شملهم وفرّق جمعهم . وسار مع أخت بهرام حتى وصلوا آمل طبرستان . فاتصلت هناك بكستهم ، نخال برويز ، الذي التجأ الى مازندان هرباً من

بطش برويز الذي أراد أن يفتك به بعدما فتك ببندويه ، خاله الثاني ، لأنه قتل هرمزد قبل الالتجاء الى الدير ومن ثم الاتصال بملك الروم .

استدعى برويز كردويه شقيق بهرام معلماً إياه بخطته والزواج من أخته إن هي قتلت زوجها كستهم . فلما وصلتها رسالة برويز مع شقيقة لها ، خنقت زوجها وأسرجت خيلها تستعد للرحيل من مازندان الى إيران . فلما وصلت ، نزل برويز واستقبلها وأحسن وفادتها . فتزلت في خدمته . وسلمها أمر جواريه بعدما أظهرت له كيف قتلت شقيق الخاقان .

ومع أن جوبين قد توفي ، ومن هذه الدنيا استكفى ، فإن برويز رأى مرة اسمه على قدح من أقداحه ، فهبّ واقفاً وعليه حاقداً . وأراد أن يولتي على الري والياً يخرب قصورها ويهدم بيوتها وبذلك يكون قد انتقم من بهرام لأن الري مسقط رأسه ومكان تربيته . فولتي عليها رجلاً غريب الأوصاف ، امتلاً قلبه بالإجحاف على بني البشر لقبح خلقه ونقصان عقله .

مضى الربيع وجاء الشتاء . ولم يبق في الري أي أثر

للبقاء ، لأن الوالي أجبر سكانها على الرحيل بعدما ملأوها بالعويل على هدم البيوت وإحراقها بالزيت . فسكنتها الجرذان بعدما كانت ملأى بالعمران . ونزلت أبراجها الى الأرض بعدما كانت تتبارى في السماء على الركض . وهجرتها الطيور بعد السنابير وعششت مكانها العقبان والدبابير .

ولما كان الربيع الثاني خرج برويز في حفلة صيد مع زوجته أخت بهرام ، التي اصطادت سنوراً كبيراً . فزينته وبهرجته وعلى فرس أركبته ، وأمرته بأن يعدو بين يدي برويز . فلما عدا ، ضحك برويز منها وسألها عن حاجتها . فطلبت منه عدم قتل السنور وإرجاع الري إلى ما كانت عليه ، فتزل عند طلبها وصرف والي الري من خدمته وندم على فعلته .

ثم ان برويز ، صرف همه في ترتيب البلاد وخدمة العباد . فنظم الجيش وقسمه وأرسله ليحمي حدود إيران ، وفرق كل قطعة نقد باسم هرمزد على المتظلمين والمساكين . وقتل كل من كانت له معاملة مع قاتلي أبيه . وقسم ساعاته وأيامه وشهوره على مصالح الملك والدين ومناهج العالمين وخصص لكل شيء وقتاً ويومه . فوقت للنظر في الأمور ، وآخر للمسموع والمنظور . وقسم للهو واللعب ، وآخر

للعيش والطرب . فعمرت بلاده وخدم عباده ورزقه الله ولداً من بنت ملك الروم ، سماه قباد وشيروه . فالأول لنفسه والثاني للعامة . وأراد من منجميه وعالميه الاطلاع على مستقبل شيروه . فلما طلبوا النجوم وعرفوا بما تحوم ، أخبروا برويز بأن ابنه سيكون شريراً وسينزل في ممالكه تخريباً . فعظم عليه ذلك وحبس نفسه مدة ، عاد بعدها إلى مجائسه مُسلماً أمره الله . ثم كتب إلى عمه ملك الروم ينبئه بقدوم المولود . ففرح به كثيراً وأرسل له ما لا يمكن وصفه ، مُهنئاً بالوليد ويوم مولده السعيد ، طالباً منه إرجاع خشبة الصليب ، وكان برويز قد غنمها في إحدى معاركه في بيت المقدس . فلما وصل الرسول وهو رجل يسمي خانكي ، قرأ الرسالة خرّاد بن برزين ؛ فاجتمع مع أعيانه وكبار مستشاريه ، وامتنع عن إرجاع عود الصليب لأنه لو فعل سيُظن فيه سوء وتغيير السلوك ، والانتقال من الزرادشتية الى النصرانية . ففضل إبقاء الخشبة عنده ، وأرجع الرسول بطرائف من بلاد الهند والصين ومصر مُعتذراً عما بدر مُقرراً لما صدر .

قصص كسرى برويز

وقصة شيرين قصة ، تروىها وفي حلقها غصة . فقد كان برويز يؤثرها ، وعلى غيرها من النساء يفضلها ، لكنه لما انشغل وبحروبه حلّ وارتحل ، ابتعد عنها ولم ينشغل غيرها . فلما هدأت الأحوال وعادت الى الانتظام بقي مُبعداً نفسه ، كاتماً حبه الى أن كان نهار ، خرج فيه الى حفلة صيد مصطحباً الجوّاري والغلمان والخدم من بني الإنسان ، الى جانب النمر والأسود وضاربي العود يتقدمهم عدد كبير من الشبان معهم النرجس والزعفران يرشونها لتزكية الأجواء بعد الرياح الهوجاء . فلما خرج بموكبه الحافل تتقدمه الجحافل ، عرفت شيرين طريقه ، فتصدته وبثته لواعج حبا ومخابىء قلبها وذكرته بالأيسام الغادية : أيام الحب

الداثة والورود الناضرة . فحنّ قلبه ورجا وده . وأمر بوضعها في خيمته الذهبية الموشاة بالحيوط الفضية . ولما انتهى من صيده ، تزوجها وإلى زوجاته ضمّها فامتنع رجاله وجافوه نظراً لما كانت عليه شيرين من قبح السيرة والأخلاق الحقيرة .

وفي يوم طلبهم ، وأمام طست ذهبي مملوء دماً وضعهم . فأمر بإراقة الدماء وتنظيف الطست . فعاد يبرق كأنه الشمس الطالعة من بين الغيوم الداكنة ، وقال لهم : « هذه حال شيرين . فنذ وقعت في حُبي ، أخلصت لقلبي ، وغسلت ذنوبها وطهرت دروبها . فصارت طاهرة بعد أن كانت مساوياً ظاهراً » . فرضوا عن الملك وعادوا الى مجالسه . ونصّب شيرين ملكة بعد أن وضعت السم لمريم بنت قيصر فقتلتها ، لأن برويز كان يبقى معها ولا يفارقها .

واهتم برويز بما كان للجدود لأنه من التحف التي لا تعود . وكان لأجداده من عهد افريدون إلى عهد كسرى ، عرش " كبير مُزين " بالآلئ والجواهر . اجتمعت عليه نواب الزمان فلم يسلم من الأمان . وكان البعض من أجداده يزيدون عليه ، والبعض الآخر ينقصون منه ، حتى جاء

الاسكندر ففرّق منه وخرّب بعضه . لكن أردشير الذي حكم ومن الاسكندر استلم ؛ أعاد جمع ألواحه وكل عيادانه . فلما كان عهده انتهى له ألفاً ومائة وعشرين أستاذاً . كان مع كل أستاذ ثلاثون تلميذاً ليعيدوا العرش على ما كان عليه زمن جاماسب . فرتبوه وزيتونه وبآلاف الجواهر رصّعوه . وكان من فرط طوله وعرضه ، يواجه الجبال من ناحية ، والبساتين والسهول من ناحية أخرى . وعملوا فيه صور البروج السيّارة وأفلاكها ومنازل القمر ومقياس ساعات الليل والنهار حتى كأنما وضعت فيه السماء بما فيها . وكان يُقسّم الى أربع طبقات . كل طبقة بجواهر تختلف عن غيرها . فالأولى للرعية . والثانية للأمراء والقواد . والثالثة للدستور والوزير . والرابعة لبرويز . وكان إذا جلس ، فرّش له بساط طويل ، أهدي له من بلاد الصين منسوج بالذهب والجوهر . صورت فيه صور البروج والكواكب مع صور جميع من ملك الأرض الى عهده .

وكان برويز يشمل الجميع بعطفه وبحسن خلقه ، خصوصاً المغنّين وأصحاب الأصوات المعروفين . وكان قد استصفي مُغنياً يُدعى سيركس ، لحسن صوته وقوة أوتار حنجرته . وكان سيركس هذا ، قد رشا حاجب برويز وطلب منه

عدم السماح بدخول من كان أحلى منه صوتاً وأوفر علماً . ومن بينهم بهربند العواد ، الذي ما أن سمعه بعضهم نصحوه بالدخول الى الملك ليعرض صوته ويبرز علمه في العزف على العود وكشف الحسود . فلما أراد الدخول منعه الحاجب ممثلاً لأوامر سيركس .

وظلّ بهربند يحاول الدخول ويتخيل المأمول حتى صادق بستانياً كان الملك يدخل الى بستانه لينعم بأفيائه وأظلاله وهو في مجالسه بين مغنيه ومسامريه . وصدف مرة أن جاء الملك وجلس تحت شجرة سرو باسقة يريد الارتياح وشرب أقداح الراح . فذهب البستاني ودعا بهربند . فجاء وتسلق الشجرة وأخذ يغني بأصوات مختلفة . فسُرّ الملك من صوته . وأخذ يفتش عنه ولا يجده . وظلّ يشرب وذاك يغني حتى ثمل فتزل من أعلى الشجرة وقدم نفسه وحكى قصته مع الحاجب . فأنب برويز سيركس واتخذ بهربند مطربه الخاص بعد أن أثراه وقدمه على أقرانه من أهل زمانه .

وبنى برويز الإيوان الذي ما زالت أقسامه قائمة حتى الآن . وهو الذي وصفه البحري في سينيته المشهورة حين قال :

فهو يبدي تجلداً وعليه كل كل من كلاكل الدهر مرسي

ولبنائه اختار أحذق الصنّاع والحفّار . ووضعهم تحت إمرة رومي صمم له البناء بالشكل المطلوب . وكلفه أن يبقي البناء حتى ولو صار هو في دنيا الفناء . فهو يريد لابنه أن يجلس فيه ويحكم منه ، ولأحفاده أن لا يرتحلوا عنه . فجعل الجدران قوية قادرة على الصمود على نواثب الزمان ، وعمّرها بالحصص الذي لا يتأثر بالثلج والمطر ولا بعوامل الدهر . فارتفع البناء بهجة للنظر ومرتعاً للقمر . وبقيت القبة . فاستمهله الرومي حتى يشتد البناء ولا يتهدّم إذا صار في دنيا الفناء . لكن برويز استطال المدة ، وأمره ببناء القبة . وأعطاه ثلاثين ألف دينار حتى يسرع في العمار . لكنه هرب وعجز غيره عن إتمام الطلب . وظلّ كذلك ثلاث سنين . فلما كانت السنة الرابعة ، ظهر وذهب إلى برويز . فلما سأله عن فراره ، أجابه بأخباره قائلاً : « لما كانت الحجارة لا تشتد إلا بمرور الزمن ولا تسبح كالسمن من نور الشمس ، كأنها صُنِعَت بالأمس . وجدت من الأفضل أن أتواري ، وغيري في صنع البناء لا يتبارى . واليوم لو رأيت الإيوان فقد نقص عما كان . ولو بنينا القبة حين أمرت بالعدة ، لتهدمت على من فيها

وقتلت مستظليها » . فاستصوب برويز رأيه ، وعمل بما أراد لإكمال البناء ومناطحة السماء . فاشتغل به وانتهى منه بعد سبع سنين من العمل . وكان من عادة برويز أن يجلس فيه يوم النيروز ، ينظر في أحوال الرعية كأنه في المجالس الأهلية وحولته الوزراء والكتاب والأسواق المشتملة على النفائس والأعلاق .

وعظم أمر برويز . فامتد حكمه على ممالك إيران وتعداها إلى بلاد توران . وأصبحت كل البلاد تدفع له الخراج ، فعمرت خزائنه بالمال الذي لم يكن على البال . وسمّى كنوزه بأسماء معينة . فهذا « باذاورد » أي محمول الريح لأنه وُجِدَ على شاطئ بحر ، قذفته الأمواج وحملته الريح إلى ذلك الشاطئ . وذلك كثر افراسياب . وآخر المجرّق . فلما انتشى من سكرة المجد ، تحول في حكمه عن الجد . فطغى واعتدى وولى حارساً كان على بابيه يُدعى زاذفرخ إدارة ممالكه وشؤون ملكه . فنهب القصور وأحرق الدور . ووضع يده بيد قائد قواده المدعو جُرازاً ، الذي قاطع برويز وراسل قيصر داعياً إياه إلى احتلال بلاد إيران . فهبّ قيصر بجنوده بعدما أتته رسل جرازاً . لكن برويز عرف بالأمر وتحلى بالصبر وأرسل كتاباً إلى جرازاً

ثمينة تخص برويز . فسأله عن أصلها وسبب وجودها معه .
فأخبره أنها لبستاني أمره بشراء بعض الطعام والشراب لرجل
يشبه الملك . فأمر شيرويه زاذفرخ بالتوجه الى ذلك البستان
وإعطاء الأمان لأصحاب المكان . فلما وصل رأى برويز
الذي كان قد هرب من قصره لما سمع بأمر قتله . فتوجه
الى ذلك البستان بعدما غير المكان . وأعطى الغلام تلك
الجوهرة ليشتري بئمنها ما يسد جوعه ويروي ظمأه . فقبض
عليه زاذفرخ وأركبه على فيل وأرسله الى طيسفون بأمر من
والده قبأذ . فحبس هناك بعد أن حكم ثمانى وثلاثين
سنة .

يهته بخداع الروم وجلبهم الى إيران بعد قطعهم بلاد
توران . وطلب من الرسول أن يُوقِعَ نفسه بين يدي
قيصر . فلما وقع وقرأ قيصر الرسالة الموجهة الى جرازا ،
تنبه للخطة . فأمر جيشه بالرجوع الى بلادهم ، وأرسل
رسالة الى جرازا يوبّخه ويعتفه ، وعلى خيانتة له يؤنبه .
فأرسل له جرازا رسولا يفهمه الحيلة التي عملها برويز
للإيقاع بينها . لكنه لم يفتنع ، ولم يرجع .

أرسل برويز رسالة الى جرازا ، يطلب منه إرسال
الجنود الذين راسلوا قيصر وكاتبوه ، فأوفد إليه اثني عشر
ألفاً . أمراً إياهم بالتظاهر والتوافق . فلما وصلوا وتحت
إمرة زاذفرخ اجتمعوا ، أمرهم بالفوضى وكثرة الشكوى
من حكم برويز . ثم دخل على الملك يعلمه بشكواهم
وكثرة بلواهم ، ففطن برويز للحيلة . لكنه لم يستطع أن
يفعل شيئاً لزاذفرخ . لأنه كان قد تواطأ مع رجاله على
خلعه وتنصيب شيرويه مكانه . ولازم زاذفرخ باب برويز .
وأرسل قائده تخوار لجلب شيرويه من الأسر . وكان والده
قد أسره ، وفي قصور بابل وضعه بعدما خرقها ووصلها ،
حتى يكون حرّاً في أسره ويرتاح الناس من شره . فلما وصل
شيرويه أو قبأذ . أدخلوا عليه غلاماً صغيراً ، معه جوهرة

باللآلىء والجواهر وفي يده سفرجلة . فلما دخلوا وقعت
السفرجلة الى الأرض . فتطير منها وتشاءم بها . ولما سمع
الرسالة ، أقام المقارنة بينه وبين ولده ، وأرجعهم بالجواب
مُظهراً الأسباب التي دفعته ليفعل ما ذكره ولده . فن
يبعث الصليب إلى الروم ، فسَيُظَنُّ به السوء وفعل المكروه .
ومن يحبس الإخوة ، فخوفاً من طمَعِهِم وكبر جشعِهِم ،
وهم إذا حُبِسُوا إنما وضيعوا بقصور متصلة وبساتين
معشبة . فلم يكن الحبس حبساً ، بل روضاً وملعباً . ومن
انتظر في أخذِ ثأر أبيه ، فلأنه كان مهموماً ، وبأمر
استرداد الحكم من بهرام كان مشغولاً ، فلما استتب له
الأمان عاقب بندويه وجعل زوجة كستهم تخنقه . فلما سمع
قُبَاذ تلك الأجوبة ، انفرد بنفسه وأخذ يبكي ، عالماً أن
الأمر ليس بيده ، بل بيد الذين نصبوه وسُدَّةَ الحكم
سَلَمُوهُ .

ثم إن بهربذ العواد سمع ما أصاب برويز ، وتغير
حاله التي لم تبقَ مثل الذهب الإبريز . فقَدِمَ الى طيسفون ،
وزار مكان المجون . فانتحبَ بكاءً وعلى عز برويز
نزل مُغْنِيّاً . فن يصدق أن صاحب الإيوان يضيق عليه
الزمان ويُسَجَنُ في مكان ضيق مثل حبات الرمان ؟ أين

الانهيار

اختار قُبَاذ عندما استلم ، وعلى عرش السلطنة حكم ،
شيخين طاعنين هما خرّاد بن برزين واسفاز كَشَسَب .
أوفدهما الى طيسفون لإصلاح الحال بينه وبين أبيه . وبعث
معها رسالة ذكّر والده فيها أنه إنما صار به ذلك فن كثرة
ما أُصِيبَ به الناس في عهده بالهوالك ، فن يسفك دم
أبيه ، ويحاول تفريق الأخ عن أخيه ، ويمتنع عن إرسال
الصليب ويحبس أولاده عن الحكم السليب .. فلا عجب ان
صار مكانه السجن بعد فقدان الأمن ! فحملا الرسالة
وتوجها الى طيسفون . فاستقبلا بالإكرام من قِبَلِ حارس
برويز الذي دخل معها . فأدّوا السلام وأظهروا الوثام
لبرويز الذي كان جالساً على بساط منسوج بالذهب ومرصع

أخذت تبرئ ساحتها وتنقذ نفسها متهمه قُبَاذ بالضلال
وسوء الانحلال . ولما طلب قُبَاذ منها الزواج ، طلبت منه
الإنصاف في ثلاثة أشياء ، هي السيرة الحميدة والحصل
الجميلة مع الزوج والأولاد ، التي أشهدت عليها الأعيان ،
فشهدوا لها بالأمان ودَعَوْها الى الاطمئنان . أما الحاجة
الثانية فهي إرجاع ما كان لها من صامت وناطق ، وهذا
ما شهدت به الخلائق . فكتب قُبَاذ كل شيء كان لها
وباسمها . أما الحاجة الثالثة فطلبت منه السماح لها بزيارة
قبر برويز لتجديد عهده وهو في لَحده . فسمح لها
بالزيارة . فلما صارت بقربه ، أكلت من قطعة السم التي
كانت معها . فماتت للحال . فلما انتهى الخبر الى قُبَاذ
أخذ في البكاء والعيول حتى مرض من فرط الجزع . فمات
بعد أن سَمِّمَ . وانتقل الأمر من بعده إلى ولده أردشير
الذي أحسن التدبير لكنه لم يُحسّن التنصيب . فوضع على
قيادة جيشه رجلاً يُدعى فيروز الذي اتصل به جراز حارس
الحدود من جهة الروم . فزيّن له الأمور ووعدّه بالسُرور
إن هو ساعده على هلاك أردشير دون أن يعرف الكبير
ولا الصغير . فعمل برأيه وانفرد بنفسه ، وزار مرة أردشير
في قصره المنير ، فجلسا للشراب وسكر أردشير من كثرة
شُرْبِهِ . فقام فيروز وكمّ فيه خانقاً أنفاسه . فمات ونصبوا

المجالس والأعراس التي كانت من بهائها تحبس الأنفاس ؟ أين
الغز والسلطان ، هل ضاق بهما الزمان ؟ أم تحولا الى غير
مكان ؟ أين العساكر الجرّارة مثل البحار الهدّارة ؟ أين
المرح ؟ أين الفرخ ؟ أين الراح الذي كان يُصب في
الأقداح ؟ أين ؟ وأين ؟ وأين ؟ أين كل هذا ؟ فقد
ذهب مع ذهاب برويز الذي عاد وقتله رجلٌ كان ماراً في
الطريق ، قبيح الصورة ، حافياً بائساً جائعاً بأمر من
زاد فرخ الذي ظلّ مع أعوانه وأصحابه يلحّون على قُبَاذ
بقتل الوالد ، لأنهم تضايقوا من تفاهم الولد والوالد . ولما
لم يستطيعوا أن يقتلوه بأنفسهم ، وجّهوا ذلك الرجل بعدما
أغنوه وأشبعوه . فدخل على برويز وقتله بخنجر كان معه .
فلما انتشر خبر قتله ، دخل الطغاة الملاحين والبُغاة الشياطين
الى محابس أولاده فقتلوهم جميعاً دون أن يحرّك قُبَاذ ساكناً .

بعد ثلاث وخمسين يوماً من مقتل برويز ، أرسل قُبَاذ
رسالة الى شيرين يهددها ويؤنبها ويخاطبها بالساحرة الفاجرة ،
ويدعوها الى حضرتة . لكنها رفضت المجيء لما سمعت
بفعله البذيء . ثم عاد وأرسل وراءها . فجاءت بلباس
الحداد وقطعة سم بيدها ، بعد أن أخذت منه وعداً بوجود
مشايخ الدولة وأعيان الحضرة . فلما مثّلت بين يديه ،

النهاية

قد تكون الأحلام نهاية للسلام ، فكما لكل شيء بداية كذلك له نهاية . فالدولة قد ضعفت ، وأحوالها تفككت . والملوك الذين ولّوا لم يطوّلوا . وقد آذنت الشمس بالمغيب بعد ظهور الدين الجديد . وقد قال المنجمون لبرويز : « ستنتهي الدولة بعد ذهابك ، بحفيد يكون على بابك . علامته نقص في جسده ورجحان في عقله . فإن لم تبادر الى الإنقاذ ، فقل على الدولة السلام » . فهرع الى أحفاده ، يفتش في أجسادهم عن علامة نقصهم . فلما لم يجدها ، منع أولاده عن الجماع والاقتراب من النساء . وكان له ولد يدعى شهریار بدون نسب ولا قرار ، تبنته شيرين وجعلته حارسها الأمين . فلما أصدر برويز قراره ونفّذ

مكانه فرائين الذي لم يكن من بيت الملك . فأسرف في التبذير ولم يعرف كيف يُدير . ففرغت الخزائن ، واجتمعوا ضده في المدائن بقيادة جراز دون أن يعلم . فلما كان معه جراز في حفلة صيد وجهه اليه قوسه وقتله . ولما لم يجدوا أحداً لتنصيبه ، وضعوا بوران بنت برويز فوعدتهم بالعدل والإنصاف ، والجمع بعد الائتلاف . وأرسلت في طلب فيروز قاتل أردشير . فقتلته بعدما كتفتته وربطته . وماتت بعد أن مرضت . ثم جاءت أختها أزرمدخت فحكمت أربعة أشهر ثم قضت نحبها ولحقت صاحبها . فاستلم شقيقها فرخ زاد ، وهو من الذين فرّوا يوم مقتل والده فالتجأ إلى حصن بناحية نصيبين . لكنه لم يحكم إلا شهراً من الزمان ، لأنه سُقي سمّاً فمات .

وبساطة عيشتهم ، ورث ملابستهم ، وفضاظة طعامهم ،
مُتباهاً بغنساء ملوك العجم وسيطرتهم على سائر الأمم .
وأرسل الرسالة مع فيروز بن سابور أحد أمرائه ، وجماعة
من أمثال الفرس بالملابس الفاخرة والهدايا الباهرة . فاستقبلهم
«سعد» وأكرمهم واعتذر لهم عن بساطة المكان ، وفضاظة
الإنسان القادم من الصحراء . ثم ردّ على الرسالة بجواب
أعقل وبأسلوب أشمل . داعياً الى المحبة والإيمان والدخول
في دين الإسلام . ثم وصف الجنة ونعيمها ، والسعير والعذاب
الزمهريير . ودعاه الى طاعة الرسول وعبادة الإله الواحد .
وإن لم يعبد ، فملك الدارين له مُسلّم ، وهو على التاج
والعرش مقرر محكم . ثم أعطى الرسالة الى رسوله شعبة
الذي ما أن وصل الى حضرة يزدجرد حتى استقبله أكابر
إيران وأعيان الزمان . فدخل عليهم وحيّاهم بتحية الإسلام
وأعطى الرسالة الى يزدجرد الذي ما أن قرأها ورأى ما
فيها من وعد ووعد وحرب وتهديد حتى قام للقتال .
فبارز رستم «سعداً» وانهمزم ، والجثث من خلفه في
إم من شدة القتال والعطش . ثم تابع المسلمون القتال
ووصلوا الى بغداد ، فتقابلوا مع فرخ زاد شقيق رستم ،
الذي من شدة بطشهم وكثرة عددهم ، دخل على ملكه
يزدجرد . فنصحه بالمغادرة واجتناب المغامرة . فترك بغداد

أمره ، غلبت على شهريار شهوة الجماع ، حتى سلبته النوم
والقرار ، فأرسل الى شيرين يعلمها وعن حاله يخبرها .
فأرسلت له جارية خفية ، فضاجمها وحملت منه ولداً ،
في أحد وركيه نقص . فلما عرف به برويز ، منعه من
المثول أمامه ، وأرسله الى ديار بعيدة وأخفى أمره عن
أهل العقيدة . فلما مات فرخ زاد ، فتشوا في السجلات
وعرفوا مكانه . فجلبوه وولوه وعلى عرش إيران وضعوه .
فلما استلم قرر أن يحكم بالعدل والإنصاف مُبعداً عن شعبه
أمور الاختلاف . وبقي مدة مشغولاً في حكمه وبناء
دولته حتى ظهر الدين الجديد يدعو الى المحبة والتوحيد .
وأوفد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، « سعد بن أبي
وقاص » الى شعب إيران يدعوهم الى الإسلام واجتناب
الحرام . فولّى يزدجرد قيادة جيشه الى رستم . فكانت
وقعة القادسية التي انتصرت فيها الدولة الإسلامية . وكان
رستم منجماً ، وعلى أحوال الفلك مُطلعاً . فلما اطلع
على النجوم ، رأى دلائل الانتهاء قد بدأت تحوم . فكتب
كتاباً الى أخيه يخبره عن مرآته . وينصحه بجمع المال
والأثمان والاعتصاب في أذربيجان . ثم كتب رسالة أخرى
الى « سعد بن أبي وقاص » ، يحذّر فيها العرب من
نيل القصاص . ثم أخذ يحقرهم على وضاعة أصلهم

طاحونة قديمة . لكنه لم يتمكن منه لانشغال جنوده بفرس
يزدجرد المحلّي بالذهب وأعواد القصب .

افترش يزدجرد التراب وهو في تلك الطاحونة الخراب .
فلما جاء صاحبها ، وجدته على تلك الهيئة ، وعلى وجهه
وثيابه الذهبية آثار الهيبة . فقدم له الطعام وساءله عن
جنود برسام الذين كانوا قرب الطاحونة . فنكر يزدجرد
أمرهم وجهل بحثهم . وأخذ يأكل . ثم طلب البرسيم
ليأكله مع الطعام . فذهب الطحّان ليحلب منه ، وعند
دار زعيم المنطقة سئِل عنه (أي عن يزدجرد) . فوصف
أوصافه ، وأخبرهم أنه في بيته يأكل طعامه . فعرف الزعيم
أنه يزدجرد ونصحته بإبلاغ ماهويه . فلما حضر عنده ،
سأله عنه . ثم أمره بالذهاب وقطع رأسه . لكن العلماء
نصحوه وعن غيّه أبعده . فلا يجوز قتل صاحب النعمة
الذي عامله بالمحبة . فتظاهر أنه رضي ، وعن رأيه ابتعد .
فلما أمسى أحضر ثقاته للمشاورة وتحضير المؤامرة . فنهّم
من أقرّ قتله ، وبعضهم فضّل حبسه . فوجد أنه إن
سُجن ، فلا مأمّن منه ومن مؤازرة الجنود له . وانه إن
قُتل فبحيلة يستطيع الاستيلاء على الملك والادعاء بأنه
الحق . فأمر الطحّان بقتل يزدجرد . وأرسل وراءه بعض

قاصداً مرو لما بينه وبين ملكها ماهويه من صداقة وكثرة
مُعاشرة . فهو الذي ولّاه بعدما كان راعياً ، وعلى كرسي
مرو وضعه مُساعداً ، وهو بالرغم من لؤمه سيساعده ،
وعلى غيره من الأمراء سيفضله . معتمداً أيضاً على مساعدة
الممالك المجاورة خصوصاً بعد إتمام المراسلة . فترك بغداد
ووصل مرو بعدما مرّ ببُست ونيسابور وطوس . فاستقبله
ماهويه مُعفراً وجهه في التراب ، ومن ثم أوصله إلى الباب
واضعاً جنوده في خدمته ، وعدته في تصرفه . ففرح
فُرُخزاد بذلك وتوجّه الى الري بإذن من الملك .

١٦
وصلت الأخبار الى مرو بأن « سعداً » قد استولى على
المدائن وسائر ما تاخها من الممالك . فعملت في رأس ماهويه
الحيلة وأخذ يفتش عن وسيلة للحصول على السلطنة والجلوس
على عرش المملكة . فتقاعس عن خدمة يزدجرد وراسل
بيزن ملك سمرقند من بلاد الترك يعلمه بقرب نهاية يزدجرد
والدخول تحت طاعته إلى الأبد . فأرسل الأخير واده برسام ،
ناوياً على عدم إحلال السلام . فقابل يزدجرد في مرو بجيش
عظيم . وتتابعت الضربات على الإيرانيين ، ولم يكونوا من
المتصرين . بل هرب معظمهم بعد خيانة ماهويه لهم .
واستطاع برسام اللحاق بيزدجرد بعد فراره واختبائه في

غلمانه للتأكد من قتله والاهتمام بتاجه وطوقه وخاتمه . فذهب
الطحان وقتل يزدجرد . وجاء الغلمان ورموا جثته في الماء .
فانتشلها في اليوم الثاني بعض الرهبان ، كانوا في دير على
شط الماء . فبكوه وانتحبوه وفي ناووس كفنوه . فلما علم
ماهويه بحالم أمر بقتلهم وإحراق دبرهم ، ففعلوا .

ثم انه اجتمع بوزيره ومشير أمره . فاستطاعا الإدعاء
أن يزدجرد لما عاجلته المنية ، أوصى إلى ماهويه تنفيذ
الوصية التي تقضي بتنصيبه على ممالك إيران من خراسان
الى سائر البلدان . فتسلم التاج والعرش مُدَّعياً أنه الحق
بعد كذبة لم يكن فيها أي نوع للصدق . ثم جمع العساكر
وعبر جيحون يريد منزلة يزن الذي ساعده على يزدجرد .
وحجته في ذلك الانتقام من ملك الترك كما أمره الملك
يزدجرد قبل مماته . فلاقاه الأخير بفلول جيشه وضخامة
عدده واضعاً على رأسه ابنه برسام . فلما تقابلا ، استطاع
برسام منه ، لما وقع عن الفرس واندقت رقبتة . فحمله
برسام الى أبيه الذي أمر بقطع أعضائه وإحراقه مع ثلاثة
من أولاده قبض عليهم في المعركة . فساتوا وخلا عرش
إيران . فلكها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ناشراً
الإسلام منبراً للحق ومكاناً للصدق .

فهرست

- ١ - ما قبل الانشقاق ٥
- ٢ - الانشقاق ٩
- ٣ - أفريدون ١٤
- ٤ - الأبطال الثلاثة ٢٦
- ٥ - الأيام العصيبة ٣٩
- ٦ - قصة رستم وسهراب وسياوخش ٥٤
- ٧ - الشار ٦٧
- ٨ - موت البطلين ٩٥
- ٩ - الملوك الأربعة ١١٤
- ١٠ - الإسكندر ١٢٢
- ١١ - الساسانيون ١٣٣
- ١٢ - بهرام جور وقصصه ١٤٥
- ١٣ - والد كسرى ١٦٣

١٦٩	١٤- كِسرى أنو شروان
١٧٩	١٥- بزرجمهر والشطرنج وكسرى
١٨٩	١٦- ظهور بهرام الملقب بجوبين
٢٠١	١٧- العدوآن اللدودان
٢١١	١٨- جوبين في أرض الصين
٢٢٠	١٩- قصص كِسرى برويز
٢٢٨	٢٠- الإنهيار
٢٣٣	٢١- النهاية

ABDEEN